العربية في ضوء اللغات السامية

للدكتور محمد صالح توفيق(*)

لمحة تاريخية :

تنتمي اللغة العربية لمجموعة من اللغات عرفت بـ "اللغات السامية" وقد ذهب كثير من المستشرقين إلى أن "اللغة العربية هي إحدى أقدم اللغات السامية التي حافظت ومازالت تحافظ على الكثير من الخصائص الأصيلة للغة السامية التي يفترض أنها الأصل الذي تفرعت عنه كل اللغات السامية وهي لذلك تقف على قدم المساواة مع اللغة الأكدية من حيث محافظتها على الطابع العريق الذي تتميز به الألسنة السامية على وجه العموم"(١)

وتبدو الحقيقة الناصعة أمامنا وهي أن اللغة العربية ليست وليدة القرن الثالث أو الرابع الميلادي، وإنما هي قديمة، متغلغلة في أعماق الماضي ولا يمكن بحال من الأحوال أن تقف عند الأدب الجاهلي على أنه يمثل طفولة اللغة العربية، فليس فيه ما يدل على البداية، ففيه الانضباط الإعرابي، ونصوصه بلغت الكمال، وأصبحت هذه النصوص تمثل النموذج الذي احتذاه النحاة واللغويون العرب، وهم يؤصلون قواعد العربية ويسجلون مفرداتها منذ مطلع القرن الثاني الهجري.

ومازالت معلوماتنا عن طفولة اللغة العربية هي معلومات جد ضئيلة تحتاج إلى تضافر جهود علماء المقارنات السامية لإبراز خصائص هذه اللغة المغرقة في القدم، والتي نراها موجودة في اللغات السامية الأخرى التي دونت في مراحل زمنية قديمة قبل الميلاد، فالتشابهات بين اللغات السامية أكثر وضوحًا من التشابهات بين اللغات الهندوأوربية، وهي التى تعطينا لمحات عن تاريخ اللغة العربية ومراحلها الأولى لدى الشعب البدوي الذي سكن جزيرة

(*) أستاذ علم اللغة المقارن بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة وعميد الكلية.

العرب، واشتق اسمه من الجذر الثلاثي (ع ر ب) .

وظهر تقسيم آخر لسكان شبه الجزيرة العربية، فقد سكنها قوم عرفوا بـ "العرب البائدة" وهي قبائل ذكرها القرآن الكريم لم تستجب لأوامر الرسل كعاد وثمود وجرهم. أما العرب الذين جاؤوا بعدهم فهم منحدرون من أصلين: قحطان وعدنان، ويتصل بنو قطحان نسبًا بالعرب البائدة الذين سكنوا جنوب الجزيرة العربية، أما أبناء عدنان فهم عرب الشمال الذين تعربوا في فترة تاريخية متأخرة، وسمتهم المصادر "العرب المستعربة" في مقابل أن عرب قحطان أطلق عليهم "العرب العاربة" أي العرب الحقيقيون الذين استوطنوا جزيرة العرب من قديم الزمان.

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نقرر، ونحن مطمئنون، أن العربية ككل اللغات السامية الأخرى، لها عناصرها القديمة التي لم تصل إلينا، ونستطيع الوقوف عليها من خلال المقارنة بين العربية وأخواتها. ومن الثابت علميًّا أن وحدة الأصل بين العربية وهذه اللغات قد ترك آثارًا واضحة على التركيب الصوتي والصرفي والدلالي في العربية وفي اللغات السامية على حد سواء، ومن هنا حرص المستشرقون على أن تكون بداية المقارنات السامية من العربية الفصحى رغم حداثتها، يقول "كيس فرستيغ" :"بالرغم من أن المادة الأشورية والبابلية الموجودة يرجع تاريخها لأكثر من ألفي عام قبل تاريخ أقدم المواد العربية المكتوبة، تبقى اللغة العربية نموذجًا لتحليل اللغات السامية وأنماطها، وليس السبب فقط معرفة الباحثين باللغة العربية ووفرة المادة المتاحة عن تاريخها، بل يكمن السبب في كونها لغة محافظة نوعًا ما، وخاصة في مسألة احتفاظها بالعلامة الإعرابية"(٢)

إن هذا البحث يرمي إلى اكتشافٍ في ماضي الحقيقة اللغوية، وتدوين سيرتها، والوقوف على حالها،

والتنبؤ بما لها، وذلك بمراقبة أصالة الاستعمال العربي، والحكم على قدمه أو حداثته، يرده إلى الاستعمالات القديمة التي نراها في اللغات الأكدية أو الأوجاريتية أو الآرامية أو العبرية، وهي لغات تعود في تدوينها إلى القرون السابقة قبل الميلاد. وهذا الجانب من الدراسة برع فيه بعض المستشرقين الذين مكنت لهم معرفتهم باللغات السامية من تعميق نظرتهم إلى تاريخ الظواهر اللغوية.

١-١: اللغويون العرب القدامى والبحث المقارن:

لم يكن علماء العربية القدامى غافلين عن العلاقة بين العربية وأخواتها وظهر ذلك واضحًا من خلال الإشارات اللطيفة التي وردت متفرقة في مؤلفاتهم مما يدل على معرفتهم للقرابة بين هذه اللغات السامية، ويبدو أنهم عزفوا عن الخوض في الحديث عن هذه اللغات حرصًا على لغة القرآن الكريم، وحتى لا تتعدد الألسنة الناطقة بالعربية، ولذا كثير لديهم الربط بين مدح الإسلام ومدح العربية، وفي المقابل ارتبط ذم الكفر بذم اللغات الأخرى. وانتقلت بذلك قداسة الدين إلى قداسة اللغة، وانعكس كل هذا في كثرة الدراسة للشريعة واللغة العربية على حساب كثير من المعارف الأخرى سواء كانت فكرية أو غير فكرية.

ويبدو لنا أن معرفة علماء العربية القدامى للقرابة بين اللغات السامية ناتج عن ثقافة عامة لديهم، كانت موجودة في عصرهم، من خلال اتصالهم بأهل الكتاب في الجاهلية، والعلاقات الفكرية بين العرب وأهل الكتاب، والتي تتضح في إشارات لطيفة عن اللغات التي كان يتكلم بها أحيانًا اليهود والنصارى في معاملاتهم التجارية، ومن خلال الطقوس الدينية التي كانوا يقومون بها كالجنائز والأعياد والصلوات في كنائسهم ومعابدهم.

ومن باب الإنصاف نقول: إن

علماء العربية القدامى أسبق من علماء الغرب في اكتشاف علاقة القرابة بين اللغات السامية، وهم أول من أدرك أن جميع هذه اللغات من أصل واحد، كما أنهم أول من مهد الطريق للبحث المقارن حين أشاروا إلى بعض المقارنات اللغوية في مصنفاتهم اللغوية. ومن الخطأ الكبير أن نرد ما ظنه المستشرقون من أنهم أول من عرف أو تنبه لأهمية اللغات السامية أو بيان العلاقة بين هذه اللغات، فقد سبقهم بقرون عديدة علماء العربية القدامى، وسجلوا في كتبهم ما يدل على معرفتهم بهذه اللغات في ضوء تفسيراتهم لكثير من ظواهر العربية.

ولتتمة ذلك نلقي الضوء على الإشارات اللطيفة الواردة في تراثنا العربي، ولسنا ندّعي أننا سنذكر كل ما ورد في المصادر العربية، بل حسبنا أن نبين ما يثبت لدينا أن العرب لم يجهلوا الدراسة المقارنة، بل أشاروا إلى أهميتها، واستعانوا بها في مواضع بعينها.

١-٢: إشارات علماء العربية القدامى لبعض اللغات السامية:

يعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) أول من أشار إلى القرابة بين العربية واللغات السامية الأخرى في معجمه (العين) الذي وضع على نظام التقليبات الصوتية. وحسبنا أن نذكر بعض النصوص التي ذكرها الخليل؛ فهي تعد من الإشارات القوية الدالة على وجود علاقة بين العربية وأخواتها.

أ- قال الخليل بن أحمد : "وكنعان بن سام بن نوح ينسب إليه الكنعانيون وكانوا يتكلمون لغة تضارع العربية"[٣] . هذا النص يؤكد وجود علاقة لغوية بين فرعين من فروع اللغات السامية، هما: العربية والكنعانية، وبينهما تشابه وتضارع مما يؤكد الأصل الواحد لكل منهما.

ب- قال الخليل :"والعبرانية لغة اليهود"[٤] وهذا يفهم منه أن الخليل ابن أحمد الفراهيدي كان على دراية بلغة اليهود، وأنها لغة مستقلة يتكلمها

اليهود، وهي تختلف عن الآرامية التي كانت سائدة على ألسنة أهل الكتاب آنذاك.

ج- قال الخليل :"هيا شراهيا" بالعبرانية: يا حيّ يا قيّوم"[٥]. ومن العجيب أن هذه الجملة هي من لغة العهد القديم التي يتعبد بها، وهي جزء من نص في سفر الخروج [١٣/١٤]، هي بالعبرية אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה وترجمتها (أنا الذي هو أنا) أي: الكائن الذي يكون. ومن المعلوم أن الكلمة אֶהְיֶה هي فعل مستقل دال على التكلم، تعبر عن اسم الله حين يتحدث عن نفسه.

د- قال الخليل: "إيل: اسم من أسماء الله عز وجل بالعبرانية"[٦] ولا شك أن هذه الكلمة من المشترك السامي القديم، فكل اسم لدى العرب آخره "ال" أو "إيل" هو مضاف إلى الله تعالى، نحو : ميكائيل، إسرافيل عزرائيل، إسماعيل، جبريل. ودلت كلمة "إيل" على الإله في النقوش السبئية والقتبانية، وكذلك العبرية، وهذا كله يفسر لدينا من المشترك السامي القديم.

هـ-قال الخليل : "ويقال المرجبة: المقلاع بالعبرانية"[٧]. ويبدو أن الخليل بن أحمد سمعها من يهوديّ على أنها بالباء، والأصل العبري ورد بالميم מַרְגֵּמָה مقلاع.

ولدينا نصوص أخرى كثيرة في كتاب العين[٨] يضيق المقام هنا عن ذكرها وكلها تشير إلى معرفة الخليل ابن أحمد بوجود لغات أخرى قريبة من اللغة العربية كالسريانية والحبشية واليمنية والكنعانية والعبرية. ومع ذلك لا ندعي أن الخليل بن أحمد قد اتبع منهجًا مقارنًا، وإنما جاءت هذه المقارنات عرضية عابرة، ولا تدل على منهج محدد المعالم على النحو الذي عرفته الدراسات اللغوية في العصر الحديث. ويبقى أن النصوص السابقة الذكر من كتاب العين هي ذات قيمة كبرى في ضوء المنهج التاريخي، لأنها تشكل حلقة أولى من حلقات البحث السامي المقارن.

١-٢-٢ : أبو عبيدة القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) ومعرفته باللغة السريانية:

عرف أبو عبيدة القاسم بن سلام اللغة السريانية، وتحدث عن أداة التعريف فيها، وهي الفتحة الطويلة في أواخر كلماتها، كما وقف على أوجه الاختلاف بين العربية والسريانية، وثنى بالحديث عن النهاية الإعرابية لكل من اللغتين. قال أبو حاتم الرازي: "قال أبو عبيدة القاسم بن سلام: للعرب في كلامها علامات لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه، منها: إدخال الألف واللام في أول الاسم، إلزامهم إياه الإعراب في كل وجه، في الرفع والنصب والخفض، كما أدخلوا في (الطور) وحذفوا الألف التي في الآخر، فألزموه الإعراب في كل وجه، وهو بالسريانية: (طورا) على حال واحدة، في الرفع والنصب والخفض. وكذلك: (اليمّ) هو بالسريانية: (يمّا)، فأدخلت العرب فيه الألف واللام، وصرفته في جميع الإعراب، على ما وصفت"[٩].

هذا النص السابق قد ركز على أمرين مهمين:

الأول منهما: أنه وضح أداة التعريف في اللغة السريانية وأنها ألف مد ترد في نهاية الاسم، ومثل لذلك بكلمتي "طورا" و"يمّا".

وقد علّق الدكتور إبراهيم أنيس على ما قاله أبو عبيدة القاسم بن سلام حيث قال : "والذين قالوا إن هذه الكلمة سريانية كانوا أقرب إلى الصواب، لأنها لم تستعمل بمعنى (الجيل) في سفر الخروج، كما كنا نتوقع، وإنما استعمل مكانها الكلمة العادية (هاهار) على أنها استعملت في هذا السفر بمعنى طبقة من الحجارة (١٧/١٨) أما في الآرامية (والسريانية لهجة من لهجات الآرامية) بالكلمة (طورا) بمعنى الجبل؛ كما في سفر دانيال ٢/٢٥"[١٠].

والآخر : أشار أبو عبيدة إلى تميز العربية وتفردها بظاهرة الإعراب وأن اللغة السريانية لا

إعراب فيها، فالمعروف أن الإعراب قد اندثر من اللغات السامية الأخرى ومنها السريانية، وإن بقيت آثار تدل عليه، في حين أن العربية هي اللغة الوحيدة التي احتفظت بظاهرة الإعراب كاملة، وصار آخر الكلمة يتغير تبعًا لموقعها في الجملة أو السياق.

١-٢-٣ : ابن دريد (ت: ٣٢٥هـ) وشغفه بذكر ألفاظ سامية أخرى:

كان ابن دريد حجة في اللغة، وذا حافظة نادرة، وقد كان شديد التعصب للغة اليمن، كما يبدو ذلك للقارئ في كتب (الجمهرة)، إذ إنها لغته الأولى، ويبدو اهتمامه بالمعرب، وقد عقد له فصلاً خاصًّا في الأبواب الملحقة بالمعجم، وكثرت إشاراته وشواهده على استخدام كلمات سريانية في الشعر الجاهلي، وبخاصة شعر أمية بن أبي الصلت، وهذه طائفة من المواد المذكورة في الجمهرة تدل على فهمه التام للعلاقات بين العربية وأخواتها، نذكر منها :

أ- قال ابن دريد :"والسهر: القمر بالسريانية، وهو الساهور، وزعم قوم: بل دارة القمر، وقد ذكره أمية بن أبي الصلت، ولم يسمع إلا في شعره، وكان مستعملاً للسريانية كثيرًا، لأنه كان قرأ الكتب.."[١١] وكرّر هذه المقولة في كتابه "الاشتقاق" حيث قال: و "الساهور: القمر بالسريانية، وقد تكلمت به العرب وذكر في الشعر.."[١٢].

وقد تبع ابن منظور في معجمه مقولة ابن دريد حول كلمة (الساهور) حيث قال :" السهر : الأرق. ورجل سُهرة مثال هُمزة، أي: كثير السهر. والساهرة والساهور: كالغلاف للقمر، يدخل فيه إذا كشف فيما تزعمه العرب. قال أمية بن أبي الصلت:

لا نقصَ فيهِ غيرَ أن خَبيئة
قمر وساهور يسلّ ويغمدُ

والساهور والسهر : نفس القمر. والساهور: دارة القمر، كلاهما سرياني[١٣] والذي يبدو لي أن المادة

اللغوية (س هـ ر) هي من المشترك السامي القديم الذي يدل على القمر، بدليل وجوده في السريانية وفي العربية، وهو في العبرية كذلك، ففيها סַהַר : قمر، هلال، ومن مشتقاته: סַהוּר : قمر، وترد بالسين الأخرى שַׂהַר : قمر.

ب- قال ابن دريد: "والبَرْخ: الكثير الرخيص، لغة يمانية، وأحسب أصلها عبرانيًّا أو سريانيًّا. وهو من البركة والنماء" (١٤). وما قاله ابن دريد يؤكد وقوفه على التقابل الصوتي بين الكاف العربية والتي تنطق خاء عبرية أو سريانية، وهذا تحكمه قاعدة "بجد كفت" التي تحول الكاف الانفجارية إلى هاء احتكاكية حين تقع في غير بداية الكلمة أو غير بداية المقطع، وقد تكررت مقولة ابن دريد في المعاجم العربية اللاحقة، ومن ذلك ما جاء في اللسان: "البرْخ: الكبير الرّخص، عمانية، وقيل : هي بالعبرانية أو السريانية. يقال :كيف أسعارهم ؟ فيقال : برْخ أي: رخيص، والتبريخ: التبريك"(١٥).

هذه عجالة لا تفي ببيان كل ما قاله علماء العربية القدامى وبخاصة علماء المشرق الإسلامي حول معرفتهم بالقرابة بين العربية واللغات السامية الأخرى، فالمقولات عديدة ومتنوعة في المعجمات العربية، كأن يقول صاحب المعجم: هذه عبرية، تلك سريانية، والأخرى حبشية، كما ظهرت هذه الأحكام في كتب التفسير، والفقه، وكتب المعرّبات التي تخصصت في بيان الدخيل على العربية الفصحى. وليس بالإمكان أن تختزن كل ما كتبه هؤلاء العلماء في عدد قليل من الصفحات.

١-٣-١: الأندلس محطة مهمة في الدرس اللغوي المقارن

كانت اللغة العربية طيلة العمر الذهبي للإسلام في الأندلس لغة رفيعة تستخدم في كل المجالات الدينية والثقافية والإدارية والعلمية. وكان من ثمرة التقدم العلمي في الأندلس أن ظهر عالم مسلم هو (ابن حزم

الأندلسي: ت ٤٥٦هـ) فبالإضافة إلى أنه فقيه الأندلس وزعيم المذهب الظاهري، فقد استطاع الوقوف على علاقة القربى بين العربية واللغات السامية الأخرى، حيث قال : "إن الذي وقفنا عليه، وعلمناه يقينًا، أن السريانية والعبرانية والعربية، التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حِمْيَر، واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرس، كالذي يحدث من الأندلس، إذا رام نفحة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام لغة أهل الأندلس.. ومثل هذا كثير، فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية، أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا، من تبديل ألفاظ الناس، على طول الأزمان واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل". وكأني بابن حزم هنا قد توصل إلى ما نسميه اليوم بـ (السامية الأم) التي تفرعت عنها هذه اللغات الثلاث (العربية والعبرانية والسريانية)، كما أنه وقف على أن العربية الجنوبية (لغة حِمْيَر) تختلف في بعض ظواهرها اللغوية عن العربية الشمالية التي هي لغة القرآن الكريم (١٦).

أما أبو حيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) فقد عرف اللغة الحبشية، وأدرك العلاقة بينها وبين العربية، وألف في الحبشية كتابًا مستقلاً اسمه "جلاء الغبش عن لسان الحبش". وقد أشار إلى ذلك في تفسيره "البحر المحيط" فقال :" وأما قولهم: هندي وهندكي في معنى واحد، وهو المنسوب إلى الهند ... فخرّجه أصحابنا، على أن الكاف ليست زائدة؛ لأنه لم تثبت زيادتها في موضع من المواضع، فيحمل هذا عليه، وإنما هو من باب : سبط وسبطر. والذي أخرجه عليه أن من تكلم بهذا من العرب – إن كان تكلم به – فإنما سرى إليه من لغة الحبش، لقرب العرب من الحبش، ودخول كثير من لغة بعضهم، في لغة بعض. والحبشة إذا نسبت ألحقت آخرما تنسب إليه كافًا مكسورة، مشوبة بعدها ياء،

يقولون في النسب إلى الفُرس: الفرسكي. وربما أبدلت تاء مكسورة، قالوا في النسب إلى جَبْر: جبرتي. وقد تكلمت على كيفية نسب الحبش، في كتابنا المترجم عن هذه اللغة، المسمى (جلاء الغبش عن لسان الحبش). وكثيرًا ما تتوافق اللغتان: لغة العرب، ولغة الحبش، في ألفاظ، وفي قواعد من التراكيب نحوية، كحروف المضارعة، وتاء التأنيث، وهمزة التعدية"(١٧).

إن الذي ذكره أبو حيان الأندلسي عن قواعد الحبشية، واتفاقه مع قواعد العربية أكده الاستقراء والمقارنة، فإن حروف المضارعة واحدة في اللغتين وهي التي يجمعها قولنا (أنيت) بل هي الموجودة أيضًا في العبرية والآرامية. ومن العجيب أن مصطلح (المضارعة) هو المستخدم في اللغة الحبشية، ولذلك يرى علماء الحبشية أنها من اللغات التي تفرق بين نوعين من المضارع: الأول منها يسمى المضارع الإخباري، أو المضارع المرفوع، والثاني المضارع المنصوب، والذي يستخدم للتعبير عن رغبة أو أمنية، أو قصد معين، ولذلك فمن الممكن أن نسميه بالمضارع الإنشائي في مقابل المضارع الإخباري السابق (١٨).

ومما يزيدنا تأكيدًا على معرفة أبي حيان الأندلسي للغة الحبشية أن مصطلح (تاء التأنيث) هو الشائع في الحبشية، في حين أن العبرية مثلاً شاع فيها (هاء التأنيث) على حساب (التاء) يقول علماء الحبشية :" إن المذكر ليس له علامة معينة تميزه في الحبشية، ويمكن إدراكه فقط في غياب إحدى علامات التأنيث، أما المؤنث فله عدة نهايات في الحبشية أبرزها ما يلي:

أولاً : تاء التأنيث وتأتي في عدة صور.

ثانيًا : حركة الفتح الطويل في نهاية الاسم.

ثالثًا : حركة الإمالة في نهاية الاسم (١٩).

والعلامتان الأخريان ناتجتان

عن اختفاء علامة التأنيث الأصلية وهي التاء كما في العربية الدارجة : فاطمة ← فاطمه ← فاطما.

أما همزة التعدية التي أشار إليها أبو حيان الأندلسي كمثال ثالث على اتفاق العربية والحبشية فهو كلام دقيق عن لغة بعينها، لا يدركه إلا المتخصصون فيها، والذين صرحوا بأن "يأتي وزن (أفعل) بزيادة ألف على الوزن الثلاثي كما في العربية والآرامية، ولم تأتِ في الحبشية الهاء في أول الفعل، لصياغة هذا الوزن كما في العبرية والسبئية "(٢٠).

هذه القضايا الصرفية الثلاث التي أشار إليها أبو حيان الأندلسي، وعالجها في ضوء المقارنة بين العربية والحبشية باتفاقهما في المصطلحات ونوع الظاهرة تجعلنا نؤكد صحة تأليفه لكتاب (جلاء الغبش عن لسان الحبش)، ولو وصلنا هذا الكتاب لغيَّر كثيرًا من أفكارنا، ولربما عرفنا من خلاله مؤلفات أخرى في مجال المقارنات السامية. ولكن نحكم على ما بأيدينا، فنقول: إن علماء اللغة العربية القدامى كانوا متنبهين إلى القرابة بين اللغات السامية، وأنهم مهدوا الطريق للبحث اللغوي المقارن حين ذكروا النواة الأولى لهذه المقارنات في مصنفاتهم العربية.

١-٣-٢ : مقارنة العبرية بالعربية لدى يهود الأندلس:

ساعدت الثقافة العربية في الأندلس في إيجاد حركة لغوية عبرية، بدأت بتأليف الكتب اليهودية باللغة العربية بخط عبري بفضل تسامح المسلمين معهم، ومعاملة أهل الكتاب كأحرار في ممارسة شعائرهم الدينية.

ومن بين علماء اليهود الذين أسهموا في نهضة اللغة العبرية آنذاك (سعديا سعيد بن يوسف الفيومي ت ٩٤٥م) الذي تنقل بين مصر وفلسطين وبغداد، وتعلّم النحو العربي في بغداد، ودرس بها المذاهب الإسلامية، والتيارات الفلسفية. ومما كتبه في مجال اللغة معجم "أجرون أي: جامع اللغة، و"كتاب اللغة" وهو محاولة

لتقعيد عبرية التوراة على غرار قواعد اللغة العربية.

ولكن النحو العبري خطا خطوة حاسمة تجاه الاستفادة من النحو العربي على يد أبي زكريا يحيى بن داود حيوج الذي ولد بفاس في القرن العاشر الميلادي، ورحل إلى قرطبة، وصار علمًا من أعلام اللغة العبرية فيما بعد. ومن مؤلفاته اللغوية: كتاب الأفعال ذوات المثلين، وكتاب الأفعال ذوات اللين. ويبدو في هذين الكتابين تأثره الكبير بالنحاة العرب في الأخذ بالأصل الثلاثي للكلمة.

أما شيخ نحاة اليهود واسمه المأخوذ من العربية (أبو الوليد مروان ابن جناح العبري، ت :١٠٥٠م) فهو صاحب أول كتاب علمي كامل في نحو اللغة العبرية، عرف باسم(اللمع). ويبدو أنه قرأ كتاب سيبويه قراءة واعية، فاستشهد كثيرًا بكلامه، وتبعه في تناول موضوعات متنوعة صوتية وصرفية ودلالية. كما تبعه في مصطلحاته اللغوية (الاعتلال – التصريف – المجاز – الإدغام .. إلخ)، وفي كل باب حرص على ذكر الأمثلة العبرية والعربية، وبرزت لنا المقارنة بين اللغتين واضحة، لدرجة أنه عاب على زملائه المتعصبين للغتهم، ولا يقارنونها بالعربية، قال : "وما لم أجد عليه شاهدًا مما ذكرت، ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربي لم أنكل من الاستشهاد بواضحه، كما يتخرج عن ذلك من ضعف علمه وقلّ تمييزه من أهل زماننا، لاسيما من استشعر منهم التقشف وارتدى بالتدين مع قلة التحصيل بحقائق الأمور"(٢١).

ثم جاء كتاب "الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية" لابن بارون، وهو أول كتاب خصص كلية للمقارنة بين اللغتين العبرية والعربية، وجاءت هذه المقارنة على المستويين النحوي والمعجمي. وقد نقله من الخط العبري إلى الخط العربي، وقدم له الأستاذ الدكتور أحمد محمود هويدي، الذي قدّم خدمة جليلة لمن يريد أن يقف على

اللغة العبرية في ضوء المقارنة مع العربية. وقد ركز في مقدمة الكتاب على نشأة الدراسة النحوية اليهودية وتأثرها بالنحو العربي. إن هذا الكتاب يعدّ مرحلة مهمة في نشأة علم نحو اللغات السامية المقارن بما فيه من موازنة صرفية ونحوية ومعجمية بين اللغتين العبرية والعربية.

وقد يكون من المناسب أن نورد مقدمة ابن بارون للجزء الثاني من كتابه، حيث قال: "إني قد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب رتبة تشارك اللغتين في النحو وتصرف الأفعال، وغير ذلك مما وفيته، وأمعنت القول فيه. وأنا ذاكر في هذا الجزء الثاني – بمعونة الله – أصولاً توافقت اللغتان فيها باللفظ والمعنى "(٢٢).

وإني لمن الداعين – مع الدكتور هويدي – إلى "دراسة منهج ابن بارون من قبل باحثي علم اللغة – في ضوء تأثره بالنحاة والمعجميين العرب – لإظهار فضل الحضارة العربية والإسلامية على اليهود في العصر الوسيط، وإبطال دعوى المستشرقين بتأثر النحو العربي بمؤثرات يهودية أو سريانية أو غيرها"(٢٣).

٢-علم اللغات السامية المقارن: موضوعه وماهيته.

يعد علم اللغة المقارن أقدم مناهج علم اللغة الحديث، وبه بدأ البحث اللغوي عصر ازدهاره في القرن التاسع عشر، حين اكتشفت اللغة السنسكريتية في الهند، وقورنت باليونانية واللاتينية. وثبت من هذه المقارنات وجود قرابة لغوية بين هذه اللغات، وأنها ترجع إلى أصل قديم بائد، وتقدّم البحث شيئًا فشيئًا فقورنت اللغات الأوربية المختلفة واللغات الإيرانية واللغات الهندية، وثبت بهذه المقارنات أن كثيرًا من هذه اللغات يحمل أوجه شبه في البنية والمعجم، وبذلك اتضحت معالم أسرة لغوية كبيرة تضم لغات كثيرة في الهند وإيران وأوربا، وأطلق الباحثون على هذه الأسرة اسم أسرة اللغات الهندية

الأوربية(٢٤).

إن علم اللغة المقارن يهتم بدراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية في اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة، لحصر أوجه التشابه بين هذه اللغات، وقد صار بهذا علم اللغة المقارن يعتمد على مبادئ علم اللغة العام في دراسة أوجه التشابه بين اللغات المختلفة، كما أطلق عليه أحيانًا مصطلح علم النحو المقارن Comparative grammar. وهو مصطلح خاص يهتم بدراسة النحو دراسة مقارنة بين لغتين من فصيلة واحدة، أو بين مرحلتين مختلفتين من مراحل اللغة الواحدة.

وقد قام الباحثون في اللغات السامية بتطبيق المنهج المقارن الذي كان قد تطور في مجال اللغات الهندوأوربية، وساعدهم على ذلك الكشوف الأثرية للغات القديمة أمثال الأكدية والعربية الجنوبية والحبشية والفينيقية، وأخيرًا اللغة الأوجريتية التي اكتشفت في ساحل الشام بالقرب من مدينة رأس شمرا سنة ١٩٢٦م.

وتبعًا لهذه الاكتشافات ازدهر علم اللغات السامية المقارن كأحد فروع علم اللغة يهتم غالبًا بالظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية في فروع اللغات المنتمية إلى فصيلة اللغات السامية.

وقد ترتب على ظهور علم اللغات السامية المقارن وجود فروع جديدة في حقل الدرس اللغوي لم تكن معروفة من قبل، هي :

أ-علم الأصوات المقارن للغات السامية:

يهتم هذا العلم بدراسة الجانب الصوتي على مستوى الفصيلة الواحدة، إن الباحث في هذا العلم يركز على الأصوات الموجودة في هذه اللغات المنتهية إلى أسرة لغوية واحدة، من أجل التوصل إلى قواعد عامة تفسر التغيرات الصوتية التي طرأت على مر الزمن، يقول أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي:" اتضح في إطار البحث الصوتي المقارن أن

مجموعة من الأصوات مستمرة دون تغير يذكر في كل لغات الأسرة الواحدة، فكل اللغات السامية مثلاً بها صوت الراء دون تغير، وعلى العكس من هذا هناك أصوات خضعت لتغيرات بعيدة المدى منها صوت الضاد الذي اختفي بمضي الوقت من كل اللغات السامية باستثناء اللغة العربية "[٢٥].

ومن المؤلفات القيمة في هذا الفرع كتاب أستاذنا الدكتور صلاح حسنين، بعنوان "المدخل في علم الأصوات المقارن" ركز فيه على ظواهر صوتية في اللغات السامية، منها: المماثلة، والمخالفة، والإطالة، والحذف، والتقصير، والزيادة، والقلب المكاني. ومع نهاية كل دراسة بانت القوانين الصوتية في كل لغة من اللغات السامية. ومما يظهر صعوبة هذا النوع من الدراسة ما صرّح به أستاذنا عن منهجه الدراسي حيث قال: "لقد استخدمنا في دراستنا للتغير الصوتي حتى الآن ما يعرف بالمنهج التاريخي، ويستنبط تاريخ الأصوات من مقارنة نصوص مختلفة ترجع إلى فترات مختلفة تبدأ من أقدم نص تاريخي يمكن العثور عليه حتى أحدث نص تاريخي يتم العثور عليه "[٢٦].

ب – علم الصرف المقارن للغات السامية :

يهتم هذا الفرع بدراسة بناء الكلمة على مستوى الفصيلة الواحدة وما يتعلق بها من أوزان، وسوابق، ولواحق، ووظائفها المختلفة. وهناك موضوعات صرفية مقارنة درست في صورة أطروحة الماجستير أو الدكتوراه، تناولت بنية الكلمة في ضوء المنهج المقارن، منها :

– التعريف والتنكير في اللغات السامية.

–الأسماء الموصولة بين العربية واللغات السامية الأخرى.

–أبنية المصادر في اللغتين العربية والعبرية.

–أسماء الإشارة في اللغات السامية.

-الصيغ الفعلية : دراسة تحليلية مقارنة.

وكل هذه الموضوعات تدخل في علم الصرف المقارن للغات السامية.

ج- علم النحو المقارن للغات السامية.

يهتم هذا العلم بدراسة الجانب التركيبي على مستوى الفصيلة السامية، وقد حظي هذا الجانب من الدراسة باهتمام كثير من المستشرقين وبخاصة "بروكلمان" في الجزء الثاني من كتابه "الأساس في النحو المقارن للغات السامية"

Grundriss der vergleichenden Grammatic der semtischen sprachen .

ويطول بناء المقام لو أردنا حصر الكتب المؤلفة في مجال النحو المقارن للغات السامية، وحسبنا أن نذكر كتابين مهمين من هذه الكتب :

-النحو المقارن للغات السامية لـ أوليري O,leary. Comparative grammar of the semitic languages.

-المدخل إلى النحو المقارن للغات السامية لموسكاتي

Moscati, An introduction to the comparative grammar of the Semitic Languages.

وكل القضايا المتعلقة ببناء الجملة في اللغات السامية هي ضمن موضوعات علم النحو المقارن، ومن هذه الدراسات: الجملة الحالية بين العربية والعبرية، جملة الاستفهام في اللغات السامية، المطابقة بين الفعل والفاعل في اللغات السامية ... إلخ.

د. علم الدلالة المقارن للغات السامية:

هذا الفرع يهتم بدراسة القضايا الدلالية على مستوى الفصيلة السامية، وبخاصة ما يتعلق بتاريخ الكلمات وتأصيلها. وهناك نتائج ملموسة في هذا المجال منها : أن اللغات السامية بها ألفاظ قديمة تعبر عن أمور

يحتاج الإنسان إلى التعبير عنها منذ أقدم العصور، وذلك كالألفاظ الدالة على أعضاء الجسم الإنساني من يد، ورجل، ورأس، وقدم، وأذن، وعين، وأنف، أو كتلك التي يعبر بها عما حوله من مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء، وأنواع الحيوانات المختلفة كالذئب والحمار وغيرهما، مما يدل على اتحاد معاني هذه الكلمات في أغلب اللغات السامية، كما أن هناك كلمات كثيرة في اللغات السامية طرأ عليها التغير الدلالي، مما يدخل في علم الدلالة المقارن.

وقد وجدت معاجم متخصصة في مجال الدلالة للغات السامية اهتمت بحصر الكلمات التى تعد من المشترك السامي القديم، واهتمت أيضًا بتتبع معاني الكلمات خلال العصور، وملاحظة ما يطرأ عليها من تبدلات تصيبها في ألفاظها، ومعانيها، وطرق استعمالها في لغات الفصيلة السامية. يقول الدكتور السيد يعقوب بكر: "علينا أن ننظر في معاجم اللغات السامية الأخرى لنرى المواد المشتركة بينها وبين اللغة العربية، ونتلمس وجوه الشبه أو الخلاف في دلالات هذه المواد.. إن الرجوع إلى اللغات السامية المختلفة تعين على تبين الأصلي والفرعي منها، وعلى تتبع التطور من دلالة إلى دلالة "[٢٧].

ويدخل في مجال علم الدلالة المقارن الوقوف على نظرية الحقول الدلالية، لكي يمكن تصنيف المشترك السامي وفقًا لهذه النظرية، حتى تبين خصائص المجتمع السامي الأول على المستوى الاجتماعي، والحضاري. وقد ذهب أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي إلى أن "أهم جانب تطبيقي لعلم الدلالة المقارن هو تأصيل المواد اللغوية في المعاجم، وتأصيل المواد المعجمية العربية بردها إلى أصولها السامية إن

وجدت. ويعدّ من الإضافات المهمة التي نجدها – مثلاً – في المعجم الكبير الذي يصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهذه التأصيلات تقوم على علم الدلالة المقارن للغات السامية "[٢٨].

لقد سخر علماء الساميات أمثال "بروكلمان" و"موسكاتي" و"أوليري" و"رايت" وغيرهم مما شاع في العصور الوسطى من أن العبرية أصل اللغات الأخرى القريبة منها، وذلك في مرحلة إجلالهم للعهد القديم حتى بلغ بهم الأمر إلى اعتبارهم آدم أول من تكلم العبرية، ووجدنا هذا التعصب للعبرية موجودًا لدى بعض علماء العبرية في العصر الحديث أمثال مراد فرج المحامي، الذي ادّعى "لولا تباين الصورة بين اللغتين، واختلاف بعض الحروف والحركات في العربية عن العبرية لكانت العربية عين العبرية، فإن في العربية مالا يعدّ ولا يحصى من ذات العبرية لفظًا ومعنى"[٢٩].

بل ذهب هؤلاء المتخصصون في علم اللغات السامية المقارن إلى أن العربية أغنى اللغات السامية بالأصول السامية القديمة من مفردات وقواعد فهي اللغة الوحيدة التي لم تفارق شبه جزيرة العرب، ولم تحتك بلغات أخرى تبعدها عن أصلها. يقول "كيس فرستيغ": "أدت نزعة محاولة إعادة تركيب اللغة السامية الأم، انطلاقًا من العربية في الماضي، إلى تركيب لغة سامية أم مشابهة للغة العربية شبهًا كبيرًا، ولذلك اعتبر الباحثون العربية لغة قديمة بالمقارنة بباقي اللغات السامية، في الحقيقة كانت بعض السمات العربية موجودة في المراحل المبكرة للغات الأخرى، ولكن أهملتها في مراحل تطورها الأحداث"[٣٠].

هذه المقولة السابقة وغيرها لا بد أن تشفع لدينا بالدليل اللغوي،

بالنظر في جملة من المسائل الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تشارك فيها العربية بعض أخواتها، أو هي من المشترك السامي بين لغات الفصيلة السامية. وهذا يتطلب من كل باحث في العربية أن يكون على معرفة ولو يسيرة بهذه اللغات السامية حتى يتمكن من الإسهام بحل بعض المشكلات التي تصادفنا في العربية الفصحى ولهجاتها القديمة والحديثة على السواء، وقد سجل أحد الباحثين عبارة بليغة تلخص المراد هنا، قال :" إن دارسي اللغة العربية بدون دراستهم اللغات السامية مثلهم مثل من ينظر إلى الأشياء من ثقب في الباب، ومثل من يقارن اللغة العربية باللغات السامية مثل من تفتحت له جميع النوافذ والأبواب، فهو ينظر إلى الأشياء من خلالها بوضوح تام"(٣١).

أقول :إن المسائل الصوتية والصرفية والنحوية المقارنة في اللغات السامية كثيرة ومتشعبة، ولسنا بقادرين على استنفادها جميعها في بحث كهذا، وإلا كتبنا كتابًا في النحو المقارن للغات السامية – وهذا ما نتمناه في المستقبل إن شاء الله – وحسبنا أن نعطي أمثلة من كل مستوى لغوي توضح أهمية الدراسات السامية للناطقين بالعربية، حريصين فيها على الاختصار غير المخل، الذي يوقفنا على العناصر القديمة الموروثة عن اللغة الأم .

ثالثًا : أهمية الدراسات السامية للناطقين بالعربية :

أراني في بداية الحديث عن أهمية الدراسات السامية للعرب والعربية، مضطرًّا إلى تأكيد عدة أمور، فرغ منها علماء الساميات، منذ فترة طويلة، وهي تعدّ عندهم الآن من البديهيات، على حين يجادل فيها بعض علماء التراث العربي القديم.

وأول هذه الأمور أن نصوص الشعر الجاهلي ليست أقدم نصوص عربية معروفة فقد ثبت بعد اكتشاف اللغة الأكدية أن كثيرًا من الظواهر العربية يعود إلى مرحلة أسبق من الشعر الجاهلي بأكثر من ألفي عام، بعد الوقوف على الشبه الكبير بين العربية والأكدية.

والحقيقة الثانية أن ما نسميه بقواعد العربية الفصحى قد امتزج فيها مستويان من مستويات اللغة، ينبغي التفريق بينهما، وهما : مستوى العربية المشتركة التي كان يفهمها ويتعامل بها الخاصة من القوم، ومستوى اللهجات المحلية التي كان يفهمها ويتعامل بها أفراد القبائل المختلفة في حياتهم اليومية. ولذلك ستكون الأمثلة من هذين المستويين، خاصة وأن النصوص الأدبية الجاهلية تكاد تكون خالصة من القبائل غير قريش، وهذا يؤكد لدينا أن العربية الفصحى [العربية المشتركة] لغة جميع العرب وليست لغة قريش فقط كما زعموا.

والقضية الثالثة التي نريد تأكيدها هنا أن التطور اللغوي يحدث وفقًا لقواعد ثابتة في اللغات السامية، يمكن أن نصوغها في صورة قوانين دقيقة تصدق على أية لغة من هذه اللغات، ولكن يزداد انتشار اللغة بين غير أهلها، وبازدياد عدد الذين يتكلمونها.

يقول أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي :"إن الحديث عن العربية واللغات السامية الأخرى طويل، ولكننا نكتفي بأن نقرر هنا مع الباحثين أن العربية قد احتفظت بعدد من الظواهر اللغوية التي تفوق الهجرة الأكدية سنة ٢٥٠٠ق .م قدمًا، وأن مقارنة العربية باللغات السامية الأخرى توضح جوانب الاشتقاق في كثير من الأمور التي حار اللغويون في الفصل فيها، وأن هناك تطورًا

عرفته اللغات السامية في الأصوات والصيغ والدلالة، وأنه من الممكن تمييز الأصيل في العربية الموروث عن اللغة السامية الأم عن الدخيل من إحدى اللغات السامية إلى العربية في ضوء القوانين الصوتية"(٣٢).

ويكفينا هنا ذكر بعض الظواهر اللغوية التي حار اللغويون العرب في تفسيرها، ونجد الحسم أو العلاج فيما نجد من نصوص في اللغات السامية الأخرى، وفيما قال علماء البحث المقارن للغات السامية حول هذه الظواهر اللغوية.

١-دراسة الأصوات في اللغات السامية .

ترتكز دراسة الصوامت في اللغات السامية إلى الكتابة في معظم الأحيان، وهذا لا يعوق الدراسة الصوتية السامية إلى درجة كبيرة، لأن معظم الصوامت السامية هي من المشترك بين جميع الأخوات، ولا يشكل ذلك صعوبة خاصة.

ومن الممكن تقسيم الصوامت السامية إلى ثلاثة أقسام:

١-ما احتفظ به جميع اللغات السامية من الأصل.

٢-ما احتفظت به العربية دون أخواتها، كلها أو بعضها.

٣-ما احتفظ به بعض اللغات دون العربية.

القسم الأول : ما احتفظ به جميع اللغات السامية في مجال الأصوات:

اختصت اللغات السامية في مجال الأصوات بوجود عدد من هذه الأصوات ليس موجودًا في الفصائل الأخرى، وأصبحت هذه الأصوات هي التي يتميز بها المتكلمون عرقيًّا من غيرهم من أبناء الشعوب المجاورة، وتكاد تكون اللغة العربية هي القاسم المشترك مع اللغات السامية الأخرى في محتواها الصوتي من

مجموعات الأصوات التي تميز الفصيلة السامية، وهي بالدرجة الأولى ما يعرف بـ "أصوات الحلق" و"أصوات الإطباق".

أما أصوات الحلق فهي في العربية ستة هي : الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء. وهي موزعة على ثلاثة مخارج في علم اللغة الحديث فالهمزة والهاء مخرجهما الحنجرة، في حين أن العين والحاء عرفا بصوتي الحلق أما الغين والخاء فهما صوتان طبقيان، خلت منهما العبرية كرمزين كتابيين. أما اللغة الأكدية فهي أقل اللغات السامية احتفاظًا بأصوات الحلق، فليس من هذه الحروف الستة سوى الهمزة والخاء، وحلت الهمزة محل سائر أصوات الحلق، وبقيت الخاء الأكدية تقابل الخاء الأصلية دون تغيير.

ووراء سقوط بعض الأصوات الحلقية من إحدى اللغات السامية ما ذكره الدكتور رمزي بعلبكي:" ولعل التفسير الأصوب لظاهرة سقوط الأصوات الحلقية من بعض هذه اللغات هو المبدأ اللغوي العام المعروف بقانون الجهد الأدنى law of least effort أي: نزعة اللغات عامة على اختصار الجهد العضلي في النطق، فالأصوات الحلقية تختلف في درجة اقتضائها للجهد العضلي. ويبدو أن أكثرها اقتضاء لهذا الجهد أخذ ينحسر ويحل غيره محله، ومهما يكن من أمر تتميز مجموعة الأصوات الحلقية في اللغات السامية، علاوة على ظاهرة سقوط بعضها، بميلها إلى الفتحة"(٣٣).

ولدينا اتجاه عام في اللغات السامية يتمثل في المماثلة بين أصوات الحلق والحركات، ينتهي بتحويل حركتي الضم أو الكسر إلى الفتح، الذي هو أخف الحركات، مما يجعله يتناسب مع

أصوات الحلق، أشار إلى ذلك أستاذنا الدكتور صلاح حسنين فقال: "في كثير من اللغات السامية، كثيرًا ما تتحول حركة المضارع من الضم أو الكسر إلى الفتح إذا كانت عينه أو لامه صوتًا حلقيًّا، فالفعل (فتح) مضارعه في العربية (يفتح)، وفي الحبشية yefeah، وفي العبريةyeftah، وفي السريانية neftah، وفي الأشورية (iptah). ipte وفي العبرية ya'amod"(٣٤).

فإذا ما انتقلنا إلى أصوات الإطباق الخمسة (ص، ض، ط، ظ، ق) نجدها قلما تخلو منها لغة سامية، أو من بعضها لغة من اللغات السامية. ويجدر بنا أن نقول: قد نجد الإطباق في نطق بعض الأصوات الأوربية، ولكنه الإطباق الثانوي الذي لا تأثير له على عدد الوحدات الصوتية لهذه اللغات، وذلك كتفخيم السين مثلاً في **sunday** الإنجليزية. وليس كذلك الإطباق في اللغات السامية فهو ذو أثر فعال في عدد الوحدات الصوتية، نجد (التاء) غير (الطاء)، و(السين) خلاف (الصاد)، وهكذا:

وهناك مجموعة أصوات نجدها واضحة في كل أفرع اللغات السامية مما يدل على أنها موروثة عن اللغة السامية الأم، وهي : الراء واللام والنون والميم. وكما يقول "موسكاتي": للسامية الأم ساكن أسناني أنفي واحد هو النون "n" وساكن أسناني جانبي هو : اللام "L" ومكرر أسناني واحد هو: الراء "r"(٣٥). وقد ثبت أن الراء العربية يقابلها راء في الأكدية، وراء في العبرية، وراء في الآرامية، وراء في الحبشية دون أدنى تغيير حقيقي. وكذلك صوت اللام الذي نجده لامًا في كل اللغات السامية.

وقد عرفت هذه الأصوات لدى علماء اللغة المحدثين

بالأصوات المائعة، وهي المعروفة لدى علماء العربية القدامى بالأصوات المتوسطة. تحدث عن هذه الأصوات أستاذنا المرحوم الدكتور رمضان عبد التواب فقال: "وقد بقيت هذه الأصوات في اللغات السامية كلها. فمثال اللام، كلمة: " لُبّ في العربية، يقابلها في العبرية : **לֵב lēb**، وفي الآرامية: **lebbā**، وفي الحبشية: **leb**، وفي الأكادية : **libbu**. مثال الميم: كلمة: "ملأ" في العربية، يقابلها في العبرية : **מָלֵא mālē** وفي الآرامية **mlā**، وفي الحبشية **mal'a**، وفي الأكادية **malū** . ومثال النون: كلمة :"نفخ" في العربية، ويقابلها في العبرية: **נָפַח nāfah**، وفي الآرامية: **nfah**، وفي الحبشية **nafha** ، وفي الأكادية **napahu**. ومثال الراء: كلمة: رأس في العربية، يقابلها في العبرية **רֹאשׁ rōš**، وفي الآرامية **rīšā** وفي الحبشية **rēš**، وفي الأكادية **rēšu**. هذه هي حالة الأصوات المائعة في اللغات السامية"[٣٦]. وهكذا تثبت المقارنات اللفظية بين العربية وأخواتها الساميات أصالة هذه الأصوات المتوسطة أو المائعة في السامية الأم.

ويدخل في هذا القسم صوتا التاء والدال، فكلاهما صوت قديم في السامية الأم، ولم يطرأ عليه أي تغيير في العربية أو الحبشية أو الآرامية أو الأكدية أو العبرية. يقول "موسكاتي" : " للسامية الأم صوتان انفجاريان أسنانيان غير مفخمين "التاء" المهموسة، و"الدال" المجهورة"[٣٧] . ومن الواضح أن هذين الصوتين في أفرع اللغات السامية لم يصبهما تغيير مطلقًا، على الرغم من نشأة تاء جديدة في الآرامية والعبرية من الثاء، ودال جديدة في الآرامية والعبرية من الذال.

القسم الثاني: ما احتفظت به العربية دون أخواتها، كلها أو بعضها:

ذهب علماء اللغات السامية إلى أن اللغة العربية من أقدم هذه اللغات، وحين ظهر لهم أن العربية تعرف بعض الظواهر التي تفوق الهجرة الأكدية قدمًا تأكد لهم قدم هذه اللغة عن سائر اللغات. وقد وضحوا عمر كثير من الظواهر اللغوية الموجودة في اللغة العربية، وردوها إلى اللغة الأم.

ومن ذلك مثلاً الأصوات الأسنانية الثلاثة (الثاء والذال والظاء) فقد بقيت كما هي في فرعي العربية (الشمالية والجنوبية) وتطورت إلى أصوات أخرى في سائر اللغات السامية، وكذلك اللهجات العربية الحديثة تبعًا لنظرية السهولة والتيسير، التي يتطلب نطقها جهدًا عضليًّا، بوضع طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى، ولذلك يتم تسهيلها بنطقها من مخرج آخر أيسر على المتكلم(٣٨).

كما أن صوت "الضاد" من الأصوات العربية خاصة، يقابله الصاد في اللغات الأكدية والأوجاريتية والعبرية، ويقابله العين في السريانية. ويبدو أن "الضاد" تعدّ فونيمًا مستقلاً في اللغات الجنوبية فقط – العربية الشمالية والعربية الجنوبية والحبشية – ومن الصعب التكهن بأي من نطق الضاد قديمًا في الأكدية والأوجاريتية والعبرية التي أصبح فيها هذا الصوت ينطق صادًا بدلاً من الضاد.وهذا يجعلنا نرى أن الضاد من أصوات اللغة السامية الأم، وأطلقت على اللغة العربية وحدها فقيل : (لغة الضاد) لما في نطقها من مشكلة عويصة لدى الأعاجم، ومثلها (الظاء) العربية في هذه الصعوبة.

كما تنفرد العربية بحفاظها على رموز الحروف التي جمعها

قولهم (ثخذ ضظغ) وهي الحروف الستة التي تطورت في بقية اللغات السامية، واندمجت في أصوات تشبهها أو تماثلها في المخرج أو الصفة، وصارت لها في العبرية والآرامية قاعدة صوتية خاصة بها عرفت بـ(بجدكفت) الأمر الذي جعل "برجشتراسر" يشهد بأصالة الجانب الصوتي في اللغة العربية، حين قال: "إن اللغة العربية رغمًا لطول الزمان الماضي عليها قبل بروزها في ميدان التاريخ قد حفظت الحروف الأصلية حفظًا أتم من سائر اللغات السامية الأخرى، ما عدا لغة الكتابات اليمنية العتيقة أو لغة معين وسبأ إلى آخره"(٣٩).

القسم الثالث: ما احتفظت به بعض اللغات السامية دون العربية:

لدينا بعض الصوامت غيرتها العربية عن أصلها، وذلك في الوقت الذي نجد الأصل قد استخدم في إحدى أخوات العربية، وهي صوامت قليلة لا تتعارض مع أصالة الجانب الصوتي في اللغة العربية. ويمكن حصر هذه الأصوات في أربعة فقط هي: الجيم والسين والشين والفاء .

١-الجيم :

ذكر أستاذنا الدكتور كمال بشر صورًا خمسًا لنطق الجيم، لها جميعًا أصول قديمة، ومازال لها وجود هنا وهناك في الحديث، ويختلف الأمر باختلاف بيئة الناطقين، واختلاف المستوى اللغوي الذي توظف فيه. هذه الصور الخمس هي:

١-الجيم الفصيحة: ورمزها في الكتابة الصوتية [dj] .

٢-الجيم القاهرية: ورمزها (g).

٣-الجيم في صورة الدال، ورمزها(d).

٤-الجيم الشامية، ورمزها(j).

٥-الجيم ياء: ورمزها (y).

وقال عن الجيم القاهرية:

"يقال إنها الأصل في نطق الجيم، وأصابها التطور وتحولت إلى ما سميناه الجيم الفصيحة. وعلى الرغم من فصاحتها وصحتها- أي: الجيم القاهرية -فإننا لا نرى استعمالها في قراءة القرآن والحديث الشريف لأن لهما تقاليد وضوابط قرآنية متفقًا عليها عند الثقات من القراء والدارسين"(٤٠).

وقد ثبت لدى علماء الساميات أن اللغات السامية المعروفة ما عدا العربية الشمالية تنطق هذا الصوت من أقصى الحنك، شديدًا، غير معطش، وهذا الاتفاق في أفرع اللغات السامية يؤكد لدينا أن النطق العربي المعطش غير أصلي، وإنما هو التطور الصوتي للجيم السامية التي تشبه الجيم القاهرية الآن. ولدينا آثار لغوية تدل على أن أصل الجيم في العربية الشمالية كان صوتًا انفجاريًّا مجهورًا كما في اللغات السامية الأخرى.

جاء في الصاحبي لابن فارس: " وحدثني علي بن أحمد الصباحي قال: سمعت ابن دريد يقول: حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها... فمن تلك الحروف الذي بين القاف والكاف والجيم، وهي لغة سائرة في اليمن، إذا اضطروا قالوا "كمل"(٤١) إن كتابة كلمة (جمل) بهذا الشكل (كمل) بالكاف جاء لقرب الكاف من الجيم في مخرجها، مما يؤكد لنا أن هذه هي الجيم غير المعطشة التي تشبه إلى حد ما (الجيم القاهرية). أما تنويع هذا الصوت في العربية وتعدد نطقه فقد جاء تخلصًا من الجيم المتعطشة في الفصحى.

٢-٢: السين والشين وأصولهما السامية:

لاحظ علماء الساميات أن

(السين) في الكلمات العربية يقابلها (الشين) في الكلمات العبرية، وفي غيرها من اللغات السامية، ومن أمثلة ذلك : שָׁלוֹם سلام، שׁוּק سوق، שָׁמַע سمع. ورأوا أن التقابل الصوتي هنا وراءه أن السامية الأصلية بها ثلاثة أصوات هي السين والشين العربيتان، وسين ثالثة احتفظت بها العربية الجنوبية والعبرية، ويبدو أن هذا الصوت الثالث دخله التطور الصوتي في العربية الفصحى، فتأرجح بين السين والشين. يقول "بروكلمان" :"لابد أن قلب الصوت السامي القديم (ś) إلى (š)، وكذلك قلب (š) إلى (s)، قد حدث في العربية الشمالية في وقت متأخر نسبيًا، لأن فيها بعض الألفاظ المستعارة من الآرامية، قد حدث فيها نفس القلب الذي حدث في الألفاظ الموروثة (مثل: šātān شيطان، ومثل: šārītā < sāriya سارية). في حين أنها احتفظت بالأصوات الآرامية في مجموعة حديثة من الكلمات الآرامية المستعارة مثل: sikkīn < sakkīn سكين، ومثل šarakrāk < šrakrāk اسم طائر).

وبذلك يمكن أيضًا تفسير استخدام عرب الشمال، لرمز :ś-š، في كتابة شينهم (š) المأخوذة من (ś)، وكتابة سينهم (s) المأخوذة من (s) و (š) عندما أخذوا الأبجدية الحرفية من الأبجدية السامية؛ لأن هذا القلب لم يكن قد انتهى حينذاك" (٤٢).

ومن الثابت احتفاظ لغات سامية بثلاثة أصوات هي السين الجانبية، والسين والشين كالأمهرية مثلاً، وفي العبرية ثلاثة رموز كتابية هي السين (שׂ) والشين (שׁ) والسامخ (ס). وقد استنتج أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي " أن السين العربية تمثل السين السامية الأولى من جانب، كما

تمثل الشين الشامية الأولى من الجانب الآخر. أما الشين العربية فتمثل السين الجانبية المفترضة في اللغة السامية الأولى"[٤٣] كما نشأت شين جديدة حق الثاء في كل من العبرية والأكدية. ومن أمثلة ذلك:

שׁוֹר ثور، **שָׁם** ثمّ، **יָשַׁב** وثب.

ولم يعد لدى ناطقي العبرية أي تمييز نطقي لرمزي السين (**שׁ**، **ס**) لأن النظام العبري لم يفرق بينهما في النطق، فصوت السين مثلاً في **שָׂרָה** سارة هو النطق نفسه في كلمة **סֵפֶר** كتاب. وقد أشار بروكلمان إلى أنه: "لم يصل إلينا من اختلاف اللهجات، في داخل اللغة العبرية، إلا الرواية المباشرة في القصة المعروفة، في الآية السادسة من الإصحاح الثاني عشر وفي سفر القضاة، والتي تقول : إن قبيلة "إفرايم" كانت تنطق الشين سيناً في كلمة : **שִׁבֹּלֶת** سنبلة" [٤٤].

٤-الفاء العربية والباء المهموسة السامية:

يتم نطق الفاء العربية بوضع أطراف الثنايا العليا على الشفة السفلى، ولكن بصورة تسمح للهواء أن ينفذ من خلالها ومن خلال الثنايا، مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق بالفاء.

هذه الفاء العربية من الأصوات الأسنانية الشفوية الاحتكاكية المهموسة وليس لها نظير مجهور في اللغة العربية.

أما اللغة العبرية ففيها النظير الشديد للفاء وهو صوت p الموجود في اللغات الأوربية، وصارت العبرية تفرق بين الصوتين بالشدة الخفيفة وهي عبارة عن نقطة توضع وسط الحرف حين يقع في بداية الكلام أو بعد سكون تام كما في **פָּתַח** = pātah = فتح **יִפְתַּח** = yiftah

يفتح.

ويبدو وجود اتفاق اللغات السامية – ماعدا العربية – في وجود صوت الباء المهموسة، في مقابل الفاء العربية، ومن ذلك فو ← فم، جاء في العبرية פֵּה **pē**، وفي الأكدية **pu** ، وفي الحبشية af، وفي الآرامية **pummā** . وهذا مما يرجح لدينا أن الباء المهموسة هي الأصل السامي القديم، والعربية طورته إلى الفاء القريبة من مخرج الباء، يقول أستاذنا الدكتور حجازي: "إن صوت الفاء العربية ليس امتدادًا مباشرًا للغة السامية، بل هو ثمرة تغير صوتي، فقد تحولت الباء المهموسة، وهي صوت شفوي ينطق بالتقاء الشفتين تمام الالتقاء إلى صوت الفاء، وهو صوت شفوي أسناني ينطق بالتقاء الشفة السفلى والأسنان العليا، أي أن الباء المهموسة والفاء لا تختلفان إلا من ناحية المخرج بدرجة ما، فالشفة السفلى تشترك في نطقهما، ولهذا لم يكن من الصعب حدوث هذا التغير. فالفاء العربية إذن صوت نتج عن صوت الباء المهموسة في اللغة السامية الأولى"[٤٥] ويقول "كيس فرستيغ: إن صوت الفاء الشفوي يحل محل صوت **p** الموجود في باقي الساميات، انظر مثلاً كلمة **paqad** في العبرية، وهي تعني (يزور). وكلمة **paqaadu** في الأكدية، وهي تعني (يعتني). أما في اللغة العربية فنفس الكلمة هي (فقد)"[٤٦].

وهكذا ذهب علماء الساميات إلى أن صوت (p) سامي الأصل، وأن صوت الفاء (f) متطور عنه في اللغات السامية الجنوبية عامة، وفي العربية خاصة. ويظهر لنا صحة ذلك حين نجد أن اللغة الأكدية تنطق كلمة (الأسكفة) بالباء (أسكبتو) وهي مشتقة من الجذر الأكدي (سكابو).

والمرجح كثيرًا أن الكلمة الأكدية أصل الكلمة العربية أو الآرامية (اسكفتا)، كما وجد في العربية (إسكاب) بالباء، و(إسكاف) بالفاء مما يدل على أن الصيغة التي اشتملت على الفاء إنما حدثت فيما بعد، إذ إن الأكدية احتفظت بالأصل(٤٧).

ونلمس هذا التطور الصوتي للفاء العربية فيما ذكره أستاذنا الدكتور صلاح حسنين حين قال :"...ويتضح هذا أكثر من تتبع التطور التاريخي لصوت الفاء في العربية من خلال مقارنته باللغات السامية الأخرى، فأصل هذا الصوت (p) في اللغات السامية الشمالية، ثم تحول إلى نظيره الاحتكاكي، وهو (الفاء) في اللغات السامية الجنوبية، مثل العربية، والذي يدل على ذلك وجود الباء في الأكدية والأوجاريتية والعبرية والآرامية. ويتضح ذلك من المقارنة الآتية بين العربية والعبرية.

عبرية	عربية
pul	فول
pē	فم
pālag	فلج
patan	فتح(٤٨)

٢-بناء الكلمة في اللغات السامية:

إن مصطلح "المورفيم: يمثل الأساس في التحليل الصرفي الحديث، عرفه بلومفيلد بقوله: "صيغة لغوية لا تحمل أي شبه جزئي في التتابع الصوتي والمحتوى الدلالي مع أية صيغة أخرى"(٤٩). ولدينا مورفيم حر، يوجد مستقلاً ومنفصلاً، والآخر عرف بـ المورفيم المقيد الذي لا يوجد إلا مرتبطًا أو متصلاً كالضمائر مثلاً.

إن مسائل الصرف عديدة، شأنها في ذلك شأن الأصوات، وكل قسم من أقسام الكلمة يمكن أن يدرس صرفيًّا في كتاب

مستقل، فتصريف الأسماء يتضمن الصيغ الاسمية، والإفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، والضمائر، والأعداد. إلخ. أما تصريف الأفعال فموضوعاته عديدة، منها: تقسيمها إلى مجرد ومزيد، وإلى صحيح ومعتل، وإلى ثنائي فثلاثي فرباعي، وعلاقة كل قسم بالتعبير عن الزمن.. إلخ. أما الحروف فتقتصر الدراسة فيها على تحديد وظائفها من عطف أو استفهام أو نفي أو ما شابه ذلك، مع وضوح علاقتها بالأفعال والأسماء. ولن يمكننا تناول كل هذه المباحث، وإنما سنمعن النظر في موضوعات ثلاثة ذات أثر واضح في دراسة العربية دراسة مقارنة.

الموضوع الأول: الأصول اللغوية بين الثنائية والثلاثية:

الميزان الصرفي مفتاح فهم طبيعة بنية الكلمة في العربية، وفي أخواتها من اللغات السامية الأخرى، ويرمز له بالحروف الأصول (ف، ع، ل) وما زاد عليها يعد من الزيادة على هذه الرموز الثلاثة، ولهذا قال النحاة العرب بثلاثية الأصول، وحين ينطق المرء بكلمة مكونة من حرفين وزنوها على أنها ثلاثية سقط منها حرف مثل: (سَلْ) على وزن (فَلْ) و(خُذْ) على وزن (عُلْ)، و(اسع) على وزن (افعَ). وعرف هذا بمنهج النحاة العرب في تحديد الحروف الأصول، ومقابلة الزيادة والنقص في الميزان الصرفي.

كما افترض النحاة العرب أن "أب" و"أخ" و"يد" و"دم" كلمات ثلاثية في الأصول، حذف أحد أصولها، ثم أعيد في الجمع أو التصغير أو النسب. والعكس صحيح لدينا، فربما كانت هذه الكلمات ثنائية الأصل وألحقت بالثلاثي فيما بعد بإضافة صوت

إليها تبعًا لرأي بعض علماء الساميات.

فقد انتهي البحث السامي المقارن إلى أن اللغات السامية تعرف الأصل الثلاثي أساسًا لأكثر المفردات، ولكن عددًا منها قد تطور عن أصل ثنائي. وقد أبرز "نولدكه" في دراسة له عن الأسماء الثنائية في اللغات السامية أن أسماء مثل:"يد، ودم، وأم" من هذه الثنائيات المغرقة في القدم، والتي عاشت إلى يومنا هذا، وأن تلك الصيغ التي تبدو من هذه المواد، وكأنها ثلاثية، تفسر باعتبارها تمثل اتجاهًا في التطور نحو الثلاثية"(٥٠).

إن علم اللغة المقارن يحاول التعرف على الأصل من خلال قراءة الكلمات العربية في أخوات العربية للوقوف على الجذر الواحد الذي صدرت عنه هذه الكلمات التي خرجت عن إطار الأصل الثلاثي كالضمائر مثلاً (أنا- هو) وكذلك مجموعة الأسماء الدالة على القرابة مثل: (أب-أم-أخ-ابن-حم...إلخ) ومجموعة الأسماء على أعضاء جسم الإنسان مثل: (يد، كف، شفة، رئة، لثة..إلخ).

وإذا كان الأمر كذلك في البحوث السامية الحديثة فإنه يمكننا معالجة إعراب الأسماء الستة في ضوء هذا الفهم الجديد لمثل الكلمات (أب، أخ، حم) . فمنهج النحويين العرب أنها أسماء ثلاثية، والحرف الثالث منها هو حرف الإعراب كالدال من زيد، وحين أقول : نجح أخوك، في الأصل (أخوُك) فالضمة على الواو علامة الرفع، ثم سلبوا الحرف الذي قبل الواو حركته، فسكن، ثم ضموه اتباعًا لحركة الواو، ثم حذفوا حركة الإعراب وهي الضمة استثقالاً لها على الواو، فصار اللفظ (أخوك).

أما البحث السامي المقارن

فقد أكد على أن هذه كلمات ثنائية الأصل، وقد تطورت هذه الكلمات في اتجاه الثلاثي لإحداث ضرب من التوازن ولكي تصبح مماثلة لأكثر الكلمات العربية وهي الكلمات الثلاثية. وحدث هذا التطور في عدة اتجاهات: أحدها يجعل حركة الإعراب طويلة فيكون الرفع بضمة طويلة (أبوك)، والنصب بفتحة طويلة (أباك)، والجر بكسرة طويلة (أبيك). غير أن هذه الكلمات تحتفظ بثنائيتها عندما تضاف إلى ضمير المتكلم (أبي، حمى، أخي). والاتجاه الثاني لجعل هذه الكلمات متوازنة مع الثلاثي كان بتشديد الصامت الثاني في الكلمات (أب،أم،أخ،حم). ونجد هذا في لهجات عربية كثيرة(٥١).

هذه الكلمات هي ثنائية في ضوء الدراسة المقارنة فكلمة (أب) مثلا هي في الحبشية **ab'** وفي العبرية **אָב āb'** وفي السريانية **abbā'** وفي الأشورية **abu**"(٥٢).

وقد رأى الدكتور أحمد علم الدين الجندي أحد علماء النحو في العصر الحديث أنه: "على مذهب ثنائية الأسماء الستة فلا مشكلة في إعرابها، ويكون الإعراب على الحرف الثاني، وليست حروف العلة فيها سوى أثر لإشباع حركات الإعراب فقولك: جاء أبوك – فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على الباء، والواو إشباع، وقس على ذلك حالة النصب والجر فيها، وهذا مذهب المازني بناء على (ثنائية) هذه الأسماء، وهذا يذكرنا بما ورد في النقوش النبطية من إشباع حركات الإعراب، وذلك مثل: إضافة الياء إلى المضاف إليه في الأسماء المركبة تركيب إضافة مثل (عبد الله). وهذا يشبه ما جاء عن أزد السراة من قولهم: جاء زيدو، ورأيت زيدا، ومررت بزيدي. فالواو والياء يمكن أن تكون دليل الإعراب، ولاسيما عند

الوقف"(٥٣).

وهذا الرأي محمود لدينا، لأنه يتفق مع تطور الإعراب الذي بدأ بالحركات أولاً، ثم كان الإعراب بالحروف الذي يبدو أنه نتيجة إشباع الحركات، وظهر هذا واضحًا مع الأسماء الثنائية (أب، حم،أخ) التي وجدت لها بعد إشباع الحركة لغات أخرى، منها إلزام الألف في لهجة، في مقابل إلزام الواو في لهجة أخرى، وثالثة ارتضت القصر فقط دون إشباع للحركة، حتى كانت اللهجات العربية الحديثة التي لزمت الواو (أبوك – أخوك) وصارت تسقط أصواتًا منها في الدول العربية (بومدين – بوتفليقة) (بافضل – باجودة –باكلا).

أما الاسم (فوك–فاك–فيك) والذي تزاد عليه الميم فصار (فم) هذا الاسم يعود إلى أصل أحادي، إذ إن المشترك السامي في اللغات السامية هو الفاء وجيء بالحركات الإعرابية عليها، ثم حدث الإشباع، فوجدت أصوات المد، وربما زادت الميم حين لا تكون الإضافة، وهي تمثل ظاهرة التمييم في اللغات السامية الأخرى التي تقابل التنوين في العربية. وصارت الصيغة الميمية تعرب بالحركات التي تظهر على الميم، في حين أن الصيغة الخالية منها عُدت من الأسماء الستة لملازمتها للإضافة لغير ياء المتكلم.

الموضوع الثاني: صيغ البناء للمجهول في اللغات السامية:

يقوم بناء الكلمة في اللغات السامية على أساسين متكاملين هما:

المادة اللغوية، والوزن. أما المادة اللغوية فهي مرتبطة بنظام الصوامت التي تكون كل مادة، وأكثرها ثلاثية، ويتحدد المعنى الخاص لكل كلمة عن طريق الحركات، ومن الصوامت والحركات نشأ الاختلاف الدلالي

بين (كَتَبَ) و (كُتِبَ) على الرغم من اتحاد الصوامت، والحركات أسهمت في دلالة الفعل الأول على البناء للمعلوم، والثاني على البناء للمجهول.

إن صيغتي (فُعِل) و(يُفْعَل) في الثلاثي الماضي والمضارع، للدلالة على البناء للمجهول، كانتا موجودتين في اللغة السامية الأولى وليستا من مستحدثات العربية الفصحى. يقول الدكتور "رمزي بعلبكي": "لا شك أن فكرة بناء الفعل للمجهول بتعديل صوائت الفعل المبني للمعلوم ترجع إلى مرحلة السامية الأم، وذلك لوجوده في عدد من اللغات السامية إلا أن ما تتميز به العربية عن أخواتها في هذا الباب هو القدرة على استخدام صيغة المجهول في جميع مزيدات الفعل، في الماضي والمضارع على السواء، أي أن بناء الفعل للمجهول في العربية معمم لا مخصص، فهو لذلك ذو قياسية عالية"(٥٤).

ولا يتسع المقام لذكر جميع آراء علماء الساميات هنا، ولذلك نذكر رأي "موسكاتي" بما فيه من خلاصة المسألة، قال :" ويصاغ الـ passive المطاوع أو ما يسمى المبني للمفعول، على نظام أصوات المد: ضمة – كسرة – فتحة في تصريف الأواخر، وهذا المستعمل في العربية (مثلاً : كَتَبَ، كُتِب)، حيث إن لتصريف الصدور في المبني للمفعول الـpassive نظام مد خاصًّا به أيضًا (مثلاً : يَكْتُب يُكْتَب). وهناك اتفاق شكلي محض مع صوت المد في الجذر المشتق مع (الهمزة) في الصدر. وبصرف النظر عن العربية يوجد في الأوجاريتية مبني للمفعول من الجذر البسيط وفي مسار تل العمارنة وفي العبرية.. وقد توجد بقايا المبني للمفعول في آرامية نقوش أربد، وفي آرامية الكتاب المقدس"(٥٥).

ويبدو أن الصيغة الأولى في البناء للمجهول من الثلاثي التي تقوم على التصريف الداخلي في الفعل عن طريق الصوائت قد انقرضت من اللغات السامية الأخرى، ولم تحتفظ بها سوى العربية الفصحى، حتى العربية العامية في العصر الحديث قد تخلصت من (فُعِل) و(يُفعَل) وحل محلها صيغتا الانعكاس أو المطاوعة (انفعل-اتفعل).

كما تتميز اللغة العربية عن أخواتها بقدرتها على استخدام صيغة المجهول في جميع مزيدات الفعل، في الماضي والمضارع على السواء، أيضًا نجد في العربية صيغ المطاوعة تؤدي معنى المبنى للمجهول، ففتح الباب يمكن أن تعبر عنها بـ انفتح الباب. ومن الثابت أن سائر اللغات السامية ليس فيها ما تتمتع به العربية من صيغ خاصة بالبناء للمجهول، وإنما اعتمدت الأفعال الدالة على المطاوعة لتعبر بها عما يعبر عنه المبني للمجهول في العربية.

وتعدّ اللغة العبرية أكثر اللغات السامية استخدامًا لصيغ البناء للمجهول بعد العربية.

١- **נִפְעַל** انفعل - فُعِل المبني للمجهول من المجرد **פָּעַל** .

٢- **פֻּעַל** فُعِّل من الوزن المضعف **פִּעֵל**.

٣- **הָפְעַל** أُفْعِل من الوزن المزيد بالهاء **הִפְעִיל** .

٤- **הִתְפַּעֵל** افتعل، تفعّل، تفاعل، وتتفق هذه الصيغة مع صيغة (اتفعل) في العامية المصرية، فأصل المقطع الأول في اللغتين هو التاء، وليست الهاء أو الهمزة إلا وسيلة للبدء بنطق التاء الساكنة. وهذه الصيغة العبرية أصبحت تقابل تمامًا صيغة (تفعّل) المضعفة العين. ومازالت هذه الصيغة التائية من المضعف هي الشائعة في العبرية، أما الصيغة التائية المشتقة من المجرد في

العبرية، والتي تشبه لفظًا ومعنى (اتفعل) في العربية العامية، والسريانية، فقد انقرضت من اللغة العبرية تمامًا.

وتعدّ اللغة الآرامية أقل اللغات السامية استعمالاً لصيغ البناء للمجهول، ففيها صيغة المطاوعة التي تدل على البناء للمجهول مثل : etdekret فعل ماضٍ مبني للمجهول متصل بضمير الفاعل بمعنى تذكّر. أما الحبشية والأكدية فلا يكاد يكون فيها أي أثر لصيغ خاصة بالبناء للمجهول. هذا هو واقع اللغات السامية كما وصل إلينا، وهو واقع يؤكد لدينا أصالة اللغة العربية، وقدرتها على الاحتفاظ بعدد من الخصائص القديمة، كالبناء للمجهول هنا – فهي التي نشأت وتطورت في الموطن الذي عاشت فيه اللغة الأم، وأنها لم تحل محل لغة أخرى، كما حدث لغيرها من اللغات المتفرعة عن اللغة الأصلية في هذا الوطن، إذ هاجرت واحتكت بلغات أخرى أبعدتها حينًا عن الخصائص الأصلية التي حافظت عليها العربية.

إن بنية اللغة العربية تتغير في العصر الحديث، وأصبح انتشار الصيغة اللغوية يتأثر بعوامل كثيرة. ولعل من الملاحظ هنا أن التعديل الصائتي الدال على البناء للمجهول إنما هو من السامي المشترك، كما حافظت عليه العربية (فُعِل). إلا أن هذا القديم لم يعد أوسع انتشارًا في العربية المعاصرة، لكراهية تعاقب حركتي الضم والكسر في هذه الصيغة، لذلك نراها اختفت تمامًا. وحلت محلها صيغتا (انفعل) و(اتفعل). يقال: فلان انسرق أو اتسرق. وهذا هو السبب في أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد اهتم بأوزان المطاوعة التي شاعت في الاستخدام العربي منذ قرون بدلاً من صيغ المبني للمجهول التي قلّ

استخدامها في الفصحى بعد أن انتهى من اللهجات. وما أشبه هذا التطور اللغوي في العربية بما حدث في أخواتها من اللغات السامية.

هذه الظاهرة اللغوية خير مثال على ما سبق أن قلناه من أن معرفة طرف ولو يسير عن اللغات السامية يساعد مساعدة أكيدة على معرفة التطور اللغوي في العربية، ويفسر لنا كثيرًا من المشكلات التي تصادفنا في الفصحى ولهجاتها القديمة والحديثة على السواء.

الموضوع الثالث: تحديد الأصل اللغوي في ضوء المقارنات السامية:

يراد بمصطلح (الأصل) هنا الأصل التاريخي الذي كانت عليه المفردات العربية مثلاً قبل أن تتطور أو تتحول عن هذا الأصل القديم. وهذا الضرب من التأصيل التاريخي يعود على دارس العربية بالفائدة؛ لذلك سيركز البحث على الألفاظ السامية المشتركة من جانب، والألفاظ الدخيلة من جانب آخر. وبذلك يمكن أن نصل إلى التغير الدلالي لهذا اللفظ أو ذاك.

ويركز منهج المقارنة على وجود عدد كبير من الألفاظ المشتركة في اللغات السامية، وإذا ثبت أن الكلمة موجودة في الأكدية والأوجاريتية والعبرية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية والحبشية فهذا يعني أنها موروثة من اللغة السامية الأم، فالمادة اللغوية وما اشتق منها يدور حول معنى اتفقت فيه هذه اللغات أو تقاربت حول هذا المعنى، ولا يخفى على القارئ أننا من خلال منهج المقارنة نسعى إلى إيجاد أصول اشتقاقية لبعض الجوامد والأدوات أيضًا حسب شيوعها في اللغات السامية الأخرى.

وليس بالإمكان أن نعتمد

الشيوع، في كل الأحيان، أساسًا في معرفة الأصل التاريخي للكلمات، فكثيرًا ما كان الأصل التاريخي قليلاً أو مهجورًا كما في قولنا: (قَوَل)أصل : (قال)، و(رَمَى) أصل: (رَمَيَ). وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار – في بحث هذه المسألة – تداخل المواد اللغوية، فبعض المواد لها معنى قديم، حدث له تطور دلالي لسبب ما، مما جعل أمام القارئ معنيين متباينين أحيانًا.

ولدينا جملة من الألفاظ ضاعت من العربية الفصحى، ولكنها بقيت مستعملة في اللهجات العامية، ومازالت بكيانها في بعض اللغات السامية الأخرى مثل العبرية والسريانية؛ ولذلك نهتدي إلى معرفة أصل اشتقاقها من خلال البحث في أخوات العربية. ولا شك في أن الوقوف على الأصول المشتركة بين العربية وبعض اللغات السامية يساعد على تعميق البحث عن تطور العربية في مراحلها القديمة، كما يلقي الضوء على اللفظ العربي المستعمل، الذي دوّن حديثًا، ولكن عمره اللغوي طويل يعود إلى قرون طويلة قبل الميلاد، يقول الدكتور جواد علي:" والعربية الفصحى تشتمل على ألفاظ وعناصر بعضها قديم جدًّا، يعود عهده إلى أقدم اللهجات السامية، وبعضها متأخر يمثل التطور الذي مرّ على اللهجات في جزيرة العرب، وفي بادية الشام وأطراف العراق، وبلاد الشام منذ أقدم العصور. ومن هذا المتأخر ما يشير إلى ابتعاد معناه عن معنى الكلمة الأم، وورود في معانٍ جديدة تولدت من ذلك التطور. ويمكن الوقوف عليه من أخذ نماذج منه، وتسجيل معناه لمطابقته بأمثاله في اللهجات السامية الأخرى، حيث يظهر ذلك التطور الذي مرّ على معاني تلك

الألفاظ في العربية، ومقدار قرب معانيها أو بعدها عن أمثالها في بقية اللغات"(٥٦).

ومن الملاحظ وجود كلمات ذات أصول سامية قديمة ارتبطت بدلالات دينية وحضارية خاصة مما يوحي بشيوعها في إحدى اللغات السامية، وأحيتها العربية في فترة زمنية ما، مما يتطلب معرفتها في اللغة التي شاعت فيها، مثل لفظة חָכָם (حاخام) أي رجل الدين عند اليهود، وهو معنى ديني خاص وجد في العبرية. ونجد المقابل العربي له (حكيم). مثل هذه الكلمات تحتاج إلى من يعرف اللغات السامية لكي يتثبت من المدخل العربي الذي توضع فيه ضمن مواد المعجم العربي، مع التأكيد على معناها الديني أو الحضاري في اللغة السامية الأخرى. ولكن الذي حدث من صناع المعاجم العربية أنهم لم يكونوا على معرفة تامة باللغات السامية؛ لذلك اخترعوا جذورًا عربية لأغلب كلمات المشترك السامي القديم.

ومن المفيد أن نشير إشارات خفيفة إلى بعض الأمثلة التي تظهر حاجة دارس العربية إلى معرفة هذه اللغات السامية، للوقوف على الأصل اللغوي الصحيح لبعض الألفاظ التي حار فيها علماء العربية القدامى.

١-كلمة (مَلَك) وأصلها اللغوي:

من المواد اللغوية العربية التي تثير انتباه القارئ حولها في معرفة أصولها اللغوية كلمة (مَلَك) و(مَلاَك)، فالكلمة لا ترجع إلى المادة الثلاثية (م ل ك) وإنما ذكرتها المعاجم العربية في الجذر (أ.ل.ك) يقول ابن فارس : (ألك): الهمزة واللام والكاف أصل واحد، وهو من يحمّل الرسالة، قال الخليل: الألوك: الرسالة، وهي المألكة على مَفْعُلة.. وإنما سميت

الرسالة ألوكًا لأنها تؤلك في الفم، مشتق من قول العرب: الفرس يألك باللجام ويعلكه: إذا مضغ الحديدة"(٥٧).

وقد أثار كلام ابن فارس عدة ملاحظات لديّ، ألخصها فيما يلي:

١-نص على أن مادة (أ،ل،ك) أصل أصيل في جذور لغتنا العربية ولم ينص على مادة (ل،أ،ك) في مقاييسه، وهي الأصل السامي القديم.

٢-جاء في لسان العرب لابن منظور: "إن سيبويه قال: ليس في الكلام مفعُل، وروي عن محمد بن يزيد أنه قال : مألك جمع مألكة". وهذا صحيح، فلم يسمع عن العرب ضم العين في وزن (مفعل) وإنما سمع منه فتح العين وكسرها في المشتقات الصرفية.

٣-خلط ابن فارس بين مادتين مستقلتين هما (ألك) و(علك) . والذي يبدو لنا أن المثال المذكور هنا (الفرس يألك باللجام ويعلكه) إنما هو من قبيل الإبدال الصوتي لمادة واحدة هي (علك) ولا علاقة لها بتحمّل الرسالة(٥٨).

لقد تنبه ابن جني إلى أن أصل تركيب (مَلَك) هو (لأك) حيث قال : "وينبغي أن يُعلم أن أصل تركيب (مَلَك) على أن الفاء لام، والعين همزة واللام كاف، لأن هذا هو الأكثر، وعليه تصرّف الفعل ... وعلى هذه اللغة جاء (ملَك) وأصله (ملأك)، وعلى هذا جمعوه، فقالوا : ملائك وملائكة، لأن جمع (مَفْعل) مفاعل، ودخلت التاء في ملائكة لتأنيث الجمع، وقد قدّموا الهمزة على اللام فقالوا: مألكة، للرسالة"(٥٩) وقال في الخصائص: "ألا ترى أن أصل (مَلَك) (مَلأك) : مفعل، من تصريف ألكني إليها عَمْرك الله، وأصله: ألئكني، فخففت همزته فصار ألكني، كما صار (ملأك) بعد التخفيف إلى (ملَك) ووزن (مَلَك) (مَفَل)"(٦٠) .

وقد أورد ابن منظور في اللسان مادة : (لأك)، ونص على أنه قد جاء "في المحكم لابن سيده ترجمة (ألك) مقدمة على ترجمة (لأك)، وقال في كتابه ما نصه: إنما قدمت باب مألكة على باب ملأكة، لأن مألكة أصل وملأكة فرع مقلوب عنها، ألا ترى أن سيبويه قدّم مألكة على ملأكة فقال: "وقالوا مألكة وملأكة؟ فلم يكن سيبويه على ما هو به من التقدّم والفضل ليبدأ بالفرع على الأصل"(٦١)

إن تعليل ابن سيده ليس مقبولاً علميًّا حين يعتمد على التقديم والتأخير لوضع كلمات ذكرها سيبويه، ويبني عليها أحكامًا لغوية، مع أن الذي رآه الفرع هو الأصل السامي القديم، والذي شهد به ابن جني من قبل.

ولدينا شواهد شعرية فيها استعمال كلمة (مَلأك) التي هي الأصل القديم في اللغات السامية. قال الشاعر أبو وخزة في مدح عبد الله بن الزبير:

فلست لإنسيّ ولكن لمَلأك
تنزّل من جوّ السماء يصوبُ

يقول ابن منظور عن البيت الشعري: "إنما مثاله (ملأك) على وزن (مفعل) والعين محذوفة ألزمت التخفيف (مَلَك) إلا في الشاذ"(٦٢) يريد أن يقول لنا الشائع بحذف العين (ملك)، والشاذ لديهم على التمام (مَلأك).

ومن الطريف ما قاله الدكتور إبراهيم أنيس: "لا نرى في الحقيقة مسوغًا لذلك الإصرار إلا فيما يظهر وقوفهم عند حد الاستعمال القرآني. ولا نتصور مع ذلك أن الأساليب القديمة في أدب ما قبل الإسلام قد خلت من شواهد استعملت فيها كلمة (ملاك)، وإن كنا نفتقد النص حتى الآن، أو ربما كان السر في إصرارهم على حذف الهمزة هو أن الصورة (ملأك) هي التي شاعت بين المسيحيين السريان من قديم، مما جعل

أصحاب المعاجم يتجاهلونها ولا يشيرون إليها"[٦٣]

والفيصل في كل ما سبق الاستئناس باللغات السامية فإننا نجد كلمة (ملاك) في العبرية هي **מַלְאָךְ** mal'ak ، ونراها واردة في سفر التكوين كثيرًا منها **וַיִּקְרָא אֵלָיו מַלְאַו יְהוָה מִן- הַשָּׁמַיִם** فناداه ملاك الرب من السماء[٦٤]. وهو الاستخدام الشائع في السريانية والحبشية mal'ak "[٦٥] .

ويتضح لنا من كل ما تقدم تمالك اللغات السامية الأخرى مع العربية في الأصل (ل أ ك)، والشائع في كلمة (ملأك) التي سهلت فيها الهمزة العربية فقيل (ملاك) فكثيرًا ما تقلب الساكنة إلى حرف مد من جنس حركة ما قبلها.

٢-التأصيل اللغوي في باب المعرّبات:

إن تقدم اليهودية في تاريخ الدعوة يخيل إلى كثير من المفكرين أن السابق في التاريخ أولى بالتأثير فيما يليه. ولذلك ذهب كثير من المستشرقين إلى أن الإسلام نسخة مفصحة من اليهودية، وزاد آخرون فقالوا: بل هو نسخة مشوهة من اليهودية والمسيحية. وهذه أقوال عامة لا تستند إلى دليل علمي، فالسبق إلى النبوة عامة لم يثبت لليهود، بل إن أنبياءهم تلقوا العلم على غيرهم، ومنهم موسى عليه السلام – كما جاء في العهد القديم .. علمه يثرون التبليغ وإقامة الشريعة، وفي تاريخ العرب أنبياء سابقون عليه كهود وصالح وذو الكفل عليهم السلام. والمتأمل يجد أن اليهود تعلموا من المسلمين لغتهم وأدبهم وحكمتهم وضبط كتابهم المقدس في الأندلس.

ومن الحقائق الواضحة أمام الباحث المتأمل أن المستشرقين الذين بحثوا في القرن التاسع عشر عن وجود تشابه بين القرآن والكتب المقدسة، وتخصصوا في الدراسات العربية والإسلامية، لم تطأ أقدامهم البلاد الإسلامية، ولم يغادروا أوربا، ثم ادعوا أن نبينا محمدًا – صلى الله عليه وسلم – حاكى العبرية، وليست

عبرية التوراة بل عبرية المشنا. إن الأمر هنا لا يعدو أن يكون مجرد توهمات من هؤلاء المستشرقين صنعها خيال تائه لديهم.

وأكثر دراسات المستشرقين في مراحلها الأولى حاولت تسخير معارفها عن اللغات السامية لخدمة اللغة العبرية، وتجافي الحقيقة التي يعرفونها جيدًا. وقد حاول كثير من علماء العربية القدامى تأصيل كثير من الألفاظ العربية، ومما يؤسف له أنهم أرجعوا كثيرًا من المفردات التي لا غبار على أصلها العربي إلى العبرية مثلاً أو السريانية مثلاً، لمجرد وجودها في هذه اللغة الأخرى، ومردهم في هذا إلى التشابه في اللفظ والمعنى، وهو تشابه مرجعه إلى أن هذه اللغات تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة. وليس لدينا اقتراض لغة من أخرى.

ولا يسعنا في هذا الميدان من البحث إلا أن نستأنس بما فعله "جزينيوس" في معجمه؛ إذ يذكر غالبًا الألفاظ المتشابهة في اللغات السامية جنبًا إلى جنب دون أن يقطع بأن إحداها قد أخذت عن الأخرى، إلا قليلاً، وفي هذه الحالة يميل بوجه عام إلى القول بأن العبرية والسريانية والآرامية هي التى أخذت عن العربية، لما أسلفناه من احتفاظ اللغة العربية بأكثر وأعرق خصائص السامية الأم"(٦٦).

ومما يقطع بصحة ما ذهب إليه "جزينيوس"، وقد وافقناه أنا نظرنا في العربية فاخترنا المعرّب فيها من بعض أسماء أنبياء بني إسرائيل للوقوف على أصولها اللغوية، ومدى صحة معالجة صناع المعاجم العربية لهذه الأسماء في ترتيب المعجم، وتداخل هذه الأسماء مع كثير من الجذور العربية ذات المعاني المختلفة مع هذه الأسماء. والأجدر بنا أن نتحدث عن كل اسم من هذه الأسماء حديثًا يخصه في إيجاز غير مخل وبلا غموض.

١-(إبراهيم) الخليل:

لم يكن حديث القرآن عن (إبراهيم) مستمدًّا من التوراة، وإلا لما

كان أيسر من ذكر تسمية أبيه تارحًا كما جاء في التوراة، وكذلك تاريخ إبراهيم لم يؤخذ من المصادر الدينية اليهودية وإلا ذهب علماء العربية القدامى مذاهب متعددة في تفسير اسم (إبراهيم)، ويندر الاتفاق بينهم على دلالة واحدة.

وقد ورد لفظ (إبراهيم) في اللغة العربية بثلاث صيغ

(١)إبراهام – بكسر الهمزة – وهو الأقرب إلى الصيغة العبرية אַבְרָהָם 'abrāhâm وفيها لغتان أخريان هما: إبراهيم بحذف الألف الثانية، وإبراهيم بحذف الألفين معًا. قال الجواليقي :".. وإبراهام، وقد قرئ به، وإبراهم، على حذف الياء، وإبراهيم. ويروى أن عبد المطلب قال:

عذت بما عاذ به إبراهيم
مستقبل القبلة وهو قائم

ويروى لعبد المطلب أيضًا:

نحن آل الله في كعبته
لم يزل ذاك على عهد إبراهيم[٦٧]

(٢)إبراهُوم – بالمد – وهناك لغة أخرى تقتصر الضمة الطويلة أي إبراهُم[٦٨].

(٣)إبراهيم – وهي أشهر الآراء – وفيها لغة أخرى بتقصير حركة الكسر فيقال : إبراهِم.

ومن الثابت لدينا أن السيوطي نقل كلام الجواليقي حول اسم (إبراهيم) وأضاف :"هو اسم سرياني معناه : أب رحيم، وقيل :مشتق من البرهمة، وهي شدة النظر، حكاه الكرماني في عجائبه"[٦٩].

وتناقل علماء العربية كلام السيوطي من بعده، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "ومعنى إبراهيم في لغة الكلدانيين أب رحيم، أو أب راحم، قاله: لسهيل وابن علمية"[٧٠]

والاسم العبري אַבְרָם (أبرام) سفر التكوين ١١/٢٦/٢٧) ومعناه الأب الرفيع (العالي). ثم غيَّر الله اسمه إلى אַבְרָהָם (أبراهام) جاء في التوراة: (لن يُدعى اسمك بعد الآن أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني

أجعلك أبا لجمهور من الأمم)[٧١]، وقد مس العلماء هاتين الكلمتين على النحو التالي: אַבְרָם مكونة من אַב أب و רָם العالي أو الرفيع אַבְרָהָם مكونة من אַב أب و רָהָם تعني : الجمهور.

ومن العجيب أن كلمة רָהָם rāhām لا تذكرها المعاجم العبرية بهذا المعنى، وليس لها اشتقاقات مستخدمة قديمًا وحديثًا منها، وإنما المعنى المذكور لـ(هامون) الصوت، المهمهة، الدوي، الكثيرة. ويبدو أن المعنى الأصلي لهذه الكلمة هو الجلبة والصوت، ثم أطلق على تجمع الناس الذي هو أحد مصادر الجلبة والضجيج.

وقد ذكر "جزينيوس" أن "دلمان" ذهب إلى تقسيم كلمة אַבְרָהָם إلى אַבִּיר التي تعني رئيس، وكلمة הָם التي تعني الجماهير. فيكون معنى الاسم: رئيس الجماهير"[٧٢]. وقد استفاد الشيخ الطاهر بن عاشور من المقارنات السامية حيث قال: " وفي التوراة أن اسم إبراهيم (إبرام) وأن الله لما أوحى إليه، وكلمه، أمره أن يسمى (إبراهيم) لأنه يجعله أبًا لجمهور من الأمم، فإن إبراهيم على هذا أبو أمم كثيرة"[٧٣]. ويبدو أنه تأثر بالنطق العربي للكلمتين فكسر الهمزة في البداية مع أنها في الأصل العبري مفتوحة، وهذا شأن تقريب الأعلام المذكورة في العبرية لـ إسماعيل، إسحاق، إسرائيل.

٢-إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام:

لقد أدراك علماؤنا القدامى أن كلمة (إسحق) أعجمية، ولكنهم تكلفوا اشتقاقها من العربية، فكما يقول الجواليقي: " وإسحاق أعجمي وإن وافق اللفظ العربيّ. ويقال : أسحقه الله يسحقه إسحاقًا"[٧٤].

فإذا ذهبنا للفظ العربي نجد أن له معنيين لا يتفقان مع اسم نبي فكما يقول ابن فارس: "السين والحاء والكاف أصلان: أحدهما البُعد، والآخر: إنهاك الشيء حتى يبلغ به إلى حال البلى"[٧٥]. ومع ذلك نجد ابن منظور يضع كلمة (إسحق) ضمن مادة

(سحق) حيث قال :" وإسحق : اسم أعجمي، قال سيبويه: ألحقوه ببناء إعصار. وإسحق: اسم رجل، فإن أردت به الاسم الأعجمي لم تصرفه في المعرفة، لأنه غير من جهته فوقع في كلام العرب غير معروف المذهب، وإن أردت المصدر من قولك أسحقه السفر إسحاقًا أي: أبعده، صرفته، لأنه لم يغير"(٧٦).

أما رواية العهد القديم فهي: "فحبلت سارة وولدت لإبراهيم في شيخوخته ابنًا، في الوقت الذي عينه الله له. فدعا إبراهيم ابنه الذي أنجبته له سارة "إسحق" .. وقالت سارة :"لقد أضحكني الرب، كل من يسمع هذا الأمر يضحك معي"(٧٧) . وهذا التعليل من سارة يتفق مع اشتقاق كلمة יִצְחָק yeshak العبرية، فالجذر اللغوي צָחַק sāhak بمعنى: ضحك، مزح، والمستقبل من יִצְחָק : يضحك، وهو المنقول إلى العلمية بمعنى الضاحك، أو الضحاك. وقد اقترن الاسم بالضحك في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾(٧٨) فقد ضحكت سارة حين عرفت أنها ستلد إكبارًا لأمر، انظر لكبر سنها هي وزوجها إبراهيم عليه السلام.

٣-إسماعيل أبو العرب :

إن من أسباب اضطراب المعاجم العربية في تقعيد الدخيل بحثهم عَنْ وزن أو أصل للفظة العربية في الوزن العربي. ومن ذلك كلمة (إسماعيل). وقد ذهب علماء الساميات على أن كلمة (إسماعيل) هي اسم مركب من مقطعين هما (يسمع + إيل)، وهما في العبرية יִשְׁמַע yešma' + אֵל 'ēl التي تعني الله وهذا الرأي الراجح لدينا، إذ نراه موجودًا في العربية الجنوبية بالياء (يسمع إيل). وهذا يعني عروبة الكلمة، وأن اللغات السامية تستوي في الأخذ عن اللغة السامية الأم المفترضة، إن لم يكن بعض هذه اللغات قد أخذ عن العربية.

وتزيدنا رواية العهد القديم

تفسيرًا لسبب التسمية وهو: "وأضاف ملاك الرب: "هو ذا أنت حامل" وستلدين ابنًا تدعينه إسماعيل، لأن الرب قد سمع صوت شقائك"(٧٩). وهذا التعليل في تسمية الاسم مقبولة لغويًّا، فالاسم مكون من فعل مستقبل ". יִשְׁמַע yisma واسم إله אֵל ēl' والمعنى (يسمع الله).

ويبدو لنا من هذا التركيب الاسمي أنه مغرق في القدم من الإرث السامي المشترك، وقد حافظت عليه العبرية الجنوبية فنطقته بالياء المكسورة، في حين أن العربية الشمالية حولت هذه الياء إلى همزة مكسورة شأن أسماء الأعلام الأخرى، نحو إسرائيل، وإسحاق. ولا يمكننا بدعوى منع الكلمة من الصرف أنها أجنبية عن اللغة العربية التي تستوي في هذه الأسماء مع العبرية وسائر اللغات السامية، وهي ألفاظ مأخوذة من السامية الأولى المفترضة.

وقد تحدث "الفيروزآبادي" عن كلمة (إسماعيل) فقال: "إسماعيل : اسم أعجمي كسائر أسماء الأعلام الأعجمية... وتكلف بعض الناس وجعل له اشتقاقًا من (سمع)، وتركيبًا منه ومن (إيل)، وهو اسم الله عز وجل، قال: فإن كان وزنه إفعاليل فمعناه :أسمعه الله أمره فقام به والذي قال: وزنه فُعاليل، لأن أصله سُماءِ قال: معناه: سمع من الله قوله فأطاعه"(٨٠).

أقول : لم أسمع بهذه الأوزان في العربية حتى لو أخذنا بالإبدال الصوتي للمنطوق العبري، والعجيب هنا أن الفيروزآبادي رأى المركب الاسمي من التكلف، وهذا ليس فيه تكلف، فأغلب اللغات السامية، عرفت الأسماء المركبة وبخاصة أسماء الملائكة (جبريل- ميكائيل- إسرافيل- عزرائيل) وكذلك أسماء الأنبياء ومنها (إسماعيل) ومن الصعب جدًّا موافقة الفيروزآبادي على تكلفه في إيجاد وزن صرفي عربي غيرمألوف لمجرد إثبات عروبة

الكلمة.

إن فيما سبق بيانه من تأصيل بعض أسماء الأنبياء يرجح لدينا أنها أصلية موروثة عن اللغة السامية الأم، وعند استقراء جميع أسماء الأنبياء ستتضح لنا المسألة، واللغة العربية حين دونت وجدت فيها هذه الأسماء حيّة في الواقع اللغوي، وعلى طريقة العرب في إيجاد وزن صرفي لها. وهذا الأمر جعل القدماء الذين ليسوا على دراية بشقيقات العربية أن يجتهدوا في بيان الأصل اللغوي، وظهر الخطأ أحيانًا، لذلك نحتاج إلى إضاءة الدارسات المقارنة حتى نستجلي أسرار العربية. وإني لأرجو بهذا البحث وما سبقه من بحوث أن أكون قد لبيت بعض الحاجة، والله لي التوفيق.

الخاتمة

والآن وقد انتهى بي المطاف إلى هذا الحد الذي اقتضاه المنهج، وارتضاه البحث، وفق الخطة التي ذكرتها المقدمة، وقد اقتصرت على تناول بعض الفوائد التي تعود على دارس العربية للغة سامية في ضوء المقارنة بينهما. ولا أدعي الحصر أو الاستقصاء لهذه الفوائد العديدة، فما يمكن لبحث صغير أن يشمل هذا. ويجدر بي أن أذكر هنا أبرز ما ورد في بحثي من أفكار أو حقائق أو نتائج، وهي على النحو التالي :

١-الحقيقة الناصعة أمامنا أن العربية التي ادعوا حداثتها هي قديمة كل القدم متغلغلة في أعماق الماضي، فأفرع اللغات السامية بينها تشابه قوي في كثير من الأصوات وبينة الكلمات والدلالة. وهذا ما لا يرضاه التيار المتعصب في علم الاستشراق المعاصر الذي لا يريحه احتفاظ العربية بكثير من الإرث المشترك في اللغات السامية .

٢-منهج المقارنة التي ترغب في الأخذ به في دراسة العربية إنما يقوم على أساس أن الظواهر اللغوية التي تتفق فيها اللغات السامية إنما تمثل الميراث السامي القديم، وأغلبه حافظت عليه العربية الفصحى مع أقدم اللغات السامية كالأكدية والأوجريتية التي يعود زمنها إلى ٢٥٠٠ ق.م تقريبًا.

٣-علماء العربية القدامى أسبق من علماء الغرب، واليهود، في اكتشاف علاقة القرابة بين اللغات السامية، وهم أول من أدرك أن جميع هذه اللغات من أصل واحد، ولذلك فمنهم أول من مهد الطريق للمنهج المقارن الذي وجد في القرن التاسع عشر الميلادي.

٤-المتخصصون في علم اللغات السامية المقارن اتفقوا على أن اللغة العربية أغنى اللغات السامية

بالأصول السامية القديمة من مفردات وقواعد، فهي اللغة الوحيدة التي لم تفارق شبه جزيرة العرب. وهذا يتطلب من كل باحث في العربية أن يكون على معرفة ولو يسيرة، بهذه اللغات السامية، التي تمكنه من الإسهام في حل معظم المشكلات.

٥-اتضح في إطار البحث الصوتي المقارن أن العربية احتفظت بأصوات دون تغير يذكر كأصوات الحلق وأصوات الإطباق، والأصوات المتوسطة، ومن الحقائق الصرفية التي يثمر حول دراستها المنهج المقارن أبنية الأفعال، والمشتقات الصرفية، وصيغ جموع التكسير، ولا يمكن حصر هذه القضايا الصرفية التي يمكن من خلال دراستها على العناصر القديمة الموروثة عن اللغة السامية الأم.

٦-ليس من المنطق أن نسلب عربية أغلب الألفاظ المعربة فهي موجودة ضمن المحيط الحضاري العربي القديم، وربما حافظت العبرية على تدوين هذه الأسماء في مرحلة زمنية قديمة ساعدت على حفظ الصورة الأصلية القديمة. وحين دونت العربية وجدت فيها هذه الكلمة فتية وناضجة، مما يدل على استخدامها القديم.

٧-إسهامات علماء العربية القدامى في باب التأصيل اللغوي للمعربات تعدّ بدائية، ولا يعتمد عليها كحقائق علمية رصينة، فقد أرجعوا أغلب هذه الأسماء إلى أصول غير عربية، معتمدين في هذا الحكم على لغتنا العربية التي دونت مؤخرًا، مع أنها من أقدم اللغات السامية المتطورة عن اللغة السامية الأولى. وأغلب الأسماء التي قيل: إنها أعجمية نجد لها أصولاً عربية قديمة من خلال المقارنات السامية.

٨-المسائل الصوتية والصرفية والنحوية المقارنة في اللغات السامية كثيرة ومتشعبة، وحاولت أن أذكر بعض هذه المسائل التي تكشف

قيمة الدراسات السامية، وسنسعى مستقبلاً إلى دراسة قدر أكبر من هذه المسائل. وحسبنا أنه يمكن الإفادة مما ذكرنا بعين الرضا التي تغمض الطرف عن كل كليلة وردت في هذا البحث.

والله ولي التوفيق

ثبت الحواشي والمصادر

(١) fisher&Jastraw: Handbucn arab. Dialekte P.S: ١٥.

واقتبسنا هذا النص من (الفصحى ولهجتها) د/عبد الفتاح البركاوي ص٩٣ القاهرة ١٩٨٤م.

(٢) كيس فرستيغ: اللغة العربية : تاريخها ومستوياتها وتأثيرها ص ٢٩ ترجمة محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.

(٣) الخليل بن أحمد : كتاب العين ١٣٢/١، تحقيق د/إبراهيم السامرائي ود/مهدي المخزومي، بغداد ١٩٨٢.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

(٥) المرجع السابق ٤٠١/٣.

(٦) المرجع السابق ٣٥٧/٨.

(٧) المرجع السابق ١١٤/٦.

(٨) انظر في ذلك كتاب العين ٣٤٠/٢، ١١٢/٨، ٢٤٧/٨.

(٩) أبو حاتم الرازي: الزينة في الكلمات الإسلامية ٢٤/١ -٢٥ تحقيق حسين الهمداني، القاهرة ١٩٥٧-١٩٥٨.

(١٠) انظر : حاشية المرجع السابق ص٢٥.

(١١) ابن دريد: جمهرة اللغة ٧٢٤/٢، تحقيق رمزي منير بعلبكي، بيروت ١٩٨٧م.

(١٢) ابن دريد: الاشتقاق ص٣١٧، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون دار المعارف بمصر ١٩٥٤م.

(١٣) ابن منظور: لسان العرب ٢١٠/٦ دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٢م.

(١٤) ابن دريد :الجمهرة ٢٨٧/١ مرجع سابق.

(١٥) ابن منظور: اللسان، مادة (بارخ) مرجع سابق.

(١٦) ابن حزم الأندلسي : الإحكام في أصول الإحكام ٣٠/١، القاهرة. د.ت.

(١٧) أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط ١٦٢/٤ - ١٦٣، مطبعة

السعادة بالقاهرة ١٣٢٨هـ.

(١٨) د/ عمر صابر عبد الجليل وزملاؤه: المدخل إلى تاريخ الحبشة واللغة الحبشية القديمة ص ١٩٧ – ١٩٨، ودار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠١م.

(١٩) المرجع السابق ص ١٣٨ وما بعدها.

(٢٠) المرجع السابق ص ٢١٨.

(٢١) **אבן גנח כתאב אללמע** ص ٧، تحقيق يوسف درينبورج، باريس ١٨٨٩م.

(٢٢) ابن بارون : كتاب الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية ص ٨٩ نقله إلى العربية د- أحمد هريدي، سلسلة الدراسات الأدبية واللغوية، العدد الرابع لسنة ١٩٩٩ م ، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة .

(٢٣) المرجع السابق ص٤٩.

(٢٤) للمزيد حول هذا الموضوع انظر: د/محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة ص ١٢ دار الثقافة العربية، طبعة ثانية معدلة، القاهرة.

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٢-٢٣.

(٢٦) د/ صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن ص ١١٥، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦م.

(٢٧) د/ السيد يعقوب بكر: دراسات في فقه اللغة العربية، المقدمة، مكتبة رياض الصلح، لبنان ١٩٦٩م.

(٢٨) د/محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة ص٢٣، مرجع سابق.

(٢٩) مراد فرج المحامي: مقالات مراد ص ٢٥٥، القاهرة ١٩٣٦م.

(٣٠) كيس فرستيغ: اللغة العربية ص٣٤، مرجع سابق.

(٣١) د/أحمد نصيف الجنابي: ملامح من تاريخ العربية ص١٥، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراق ١٩٨١م.

(٣٢) د/محمود فهمي حجازي: اللغة العربية عبر القرون ص٣٥، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٨م.

(٣٣) د/ رمزي منير بعلبكي: فقه

العربية المقارن ص ٤٢، دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٩م.

(٣٤) د/ صلاح حسنين: مدخل في علم الأصوات المقارن ص١٣٩، مرجع سابق.

(٣٥) موسكاتي وزملاؤه: مدخل إلى علم اللغات السامية المقارن ص ٦١ ترجمة د / مهدي المخزومي ود/ عبد الجبار المطلبي، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٣م.

(٣٦) د/رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ص ٢٢٦ – ٢٢٧. مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٣م.

(٣٧) موسكاتي: مدخل ص ٥٩-٦ مرجع سابق.

(٣٨) د/حسام البهنساوي : مقال: الجهود اللغوية للأستاذ الدكتور/ رمضان عبد التواب، بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص ٧٧ من الكتاب التذكاري الأول، آداب عين شمس بعنوان (هؤلاء علمونا) القاهرة ٢٠٠٣م.

(٣٩) برجشتراسر : التطور النحوي للغة العربية ص١٤، صححه د/رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٢م.

(٤٠) د/كمال بشر: فن الكلام ص٢١٦-٢١٧ ، دار غريب القاهرة ٢٠٠٣م.

(٤١) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة ص ٥٤، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٣م.

(٤٢) بروكلمان :فقه اللغات السامية ص٤٩-٥٠ ترجمة د / رمضان عبد التواب مطبوعات جامعة الرياض، السعودية ١٩٧٧م.

(٤٣) د/ محمود فهمي حجازي : علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ص٢٠٢، الكويت ١٩٧٣م.

(٤٤) بروكلمان: فقه اللغات السامية ص١٨- ١٩، مرجع سابق.

(٤٥) د/ محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية ص ٢٠٠-٢٠١، مرجع سابق .

(٤٦) كيس فرستيغ: اللغة العربية ص٣٠، مرجع سابق.

(٤٧) طه باقر: من تراثنا اللغوي القديم ص٤٢-٤٣، العراق ١٩٨٠م.

(٤٨) د/ صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن ص١١٨، مرجع سابق.

(٤٩) د/ محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة ص ٥٦، مرجع سابق.

(٥٠) د/ محمود فهمي حجازي: اللغة العربية عبر القرون ص٣١، مرجع سابق.

(٥١) المرجع السابق نفسه.

(٥٢) Gesenius. A Hebrew and English Lexicon of the Lestament p. ٣.

(٥٣) د/ أحمد علم الدين الجندي: بين الحركات والحروف في الإعراب: دراسة تاريخية مقارنة ص ٨٤، مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٥٧، القاهرة ١٩٨٥م.

(٥٤) د/ رمزي بعلبكي: فقه العربية المقارن ص ١٥٠-١٥١، مرجع سابق.

(٥٥) موسكاتي: مدخل ص٢١١، بتصرف يسير، مرجع سابق.

(٥٦) د/ جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٣٤١/٧، مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد.

(٥٧) ابن فارس: مقاييس اللغة ١٣٢/١، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٦٩م.

(٥٨) ابن منظور : لسان العرب ١٨٣/١، تنسيق وتعليق علي شيري، بيروت ١٩٩٢م.

(٥٩) ابن جني : المصنف ١٠٣/٢، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعلي أمين، القاهرة ١٩٥٤م.

(٦٠) ابن جني: الخصائص ٨١/٢، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

(٦١) ابن منظور: اللسان ٢١٠/١٢ مرجع سابق.

(٦٢) السابق والصفحة.

(٦٣) انظر: د/ إبراهيم أنيس: مقال

(ملك، ملائك، ملائكة) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ٣١ سنة ١٩٧٣م.

(٦٤) سفر التكوين ١١/٢٢. وانظر أيضًا: سفر التكوين ١٦،١٧، ١٧/٢١، ١١/٢٢، وسفر الخروج ٢/٢٣، ٢٠/٢٣.

(65)W. Gesenius. P 572.

(٦٦) د/ حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية ص٥٨، دار القلم، دمشق ١٩٩٠م.

(٦٧) أبو منصور الجواليقي: المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ص ١٤٠ تحقيق د.ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق ١٩٩٠م.

(٦٨) المرجع السابق والصفحة.

(٦٩) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ١٣٨/٢. دار الندوة، الجديدة، بيروت، د.ت.

(٧٠) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ١/ ٦٧٩، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٩م.

(٧١) سفر التكوين ٥/١٧.

(72)W.Gesenius. P.4.

(٧٢) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ٦٧٩/١، مرجع سابق.

(٧٣) أبو منصور الجواليقي : المعرب ص ١٠٦، مرجع سابق.

(٧٤) ابن فارس: مقاييس اللغة ١٣٩/٣.

(٧٥) ابن منظور : اللسان ١٩٥/٦.

(٧٦) سفر التكوين ٢/٢١-٦.

(٧٧) سورة هود آية ٧١.

(٧٨) سفر التكوين ١١/١٦.

(٧٩) الفيروزآبادي : بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٣٩/٦، تحقيق عبد العليم الطحاوي، بيروت، د.ت.